

obeyikanda.com

أدب النكتة - بحث في جذور النكتة الحمصية

حرب الأيديولوجيا الفكاهية وليتورجيا المجانين المندثرة

obeikandi.com

أدب النكئة – بحث في جذور النكئة الجاهلية

حرب الأيديولوجيا الفكاكية وليتورجيا المجانين المنهثرة

تأليف

جورج ممدوح كدر

أدب النكتة – بحث في جذور النكتة الحمصية

حرب الأيديولوجيا الفكاهية وليتورجيا المجانين المندثرة

تأليف: جورج ممدوح كدر

سنة الطباعة: ٢٠٠٩

عدد النسخ: ١٠٠٠

جميع العمليات الفنية والطباعة تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة لدار رسلان

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

ص.ب: ٢٥٩ جرمانا

الإهداء

إلى

أبي ممدوح وأمي صباح

أخي سامر وأختي ماريّة

إلى

زوجتي لور وابنتي ليلى

إلى

الدكتور أسكندر ديب

أهدي أول أعمالتي

كل الشكر والتقدير للصديق فنان الكاريكاتير العالمي الحموي الأصل

علي فرزات

لإهدائه غلاف هذا الكتاب

obeikandi.com

مقدمة

صحيح أن للنكتة أدبيات وقواعد خاصة بها في الأدب الضاحك، لكن الصحيح أيضاً، أن لها جذور عميقة في حياة الشعوب تحدد الإطار العام لها، فهي بحكم استهدافها لهذا لشعب أو لطائفة منه أو شخص مجهول أو معلوم فيه، تأخذ شكلها العام و الحالي متبلورة من أنواع "فكاهية" تتناسب والعصر الذي وجدت فيه ويمكن القول أن المضحك والمبكي لا يتغير إطاره العام، وإنما الذي يتغير آلية تلقيهما.

والحمصي كأحدى الشخصيات البارزة في الأدب الضاحك المعاصر استهدف منذ البداية وتُعت بالحمق لا بل صُنفه ابن الجوزي بين "الحمقى والمغفلين على الإطلاق"، وعلى ذلك تركزت النكات على أهل حمص فيما بعد. والجدير ذكره أن ما وسم به أهل حمص بنته أحداث تاريخية مهمة عاشتها المدينة .

هذا العمل، يبحث في جذور النكتة الحمصية، دون الدخول في تحليل النكت التي تروى عن أهل حمص إلا ما تقتضي الإشارة إليها.

وتجدر الإشارة إلى أن "حرب الأيديولوجية الفكاهية" التي وردت في عنوان الكتاب هي مصطلح لبو علي ياسين، استخدمه في كتابه بيان الحد بين الهزل والجد، يقوم على اعتبار أن هذه الأيديولوجية تتسع لجميع الانتماءات الاجتماعية من عشيرة وشعب وطبقة وطائفة إلى غيرها من المجموعات البشرية التي تقوم بين أفرادها روابط مصيرية واقتصادية. في هذه الحرب ليس مهماً أن يكون كل ما يقال صحيحاً ولا صادقاً، وليس مقصوداً ولا حتى مرغوباً إصلاح الغير، ولا أخذ العبرة من مساوئه، بل على العكس، إذا لم توجد السلبيات في الآخرين، أوجدناها. وعلى فرض أنهم تغيروا، وأصلحوا أنفسهم فإننا لن نغير نظرتنا فيهم، في هذه الحرب لا

يقال- من حيث الجوهر- أكثر من أننا " نحن" مختلفون عنهم "هم"، وأننا نحن (بما أننا نحن) أفضل منهم (لأنهم الغير)^(١).

تشتمل حرب الأيديولوجية الفكاكية على صراع الأفكار والآراء والعقائد السياسية والدينية والفكرية، لتلك الانتماءات باستخدام الأسلحة " الفكرية" التي وصل إليها العصر، كالشعر (الهجائي منه بخاصة) والقصص والنوادر (العصر الجاهلي، العصر الإسلامي)، والدعاية والشائعة والنكت... الخ في العصور اللاحقة. أما المقصود باليتورجيا المجانين المنذرة فهو عيد المجانين وطقوسه التي كانت سائدة في العبادات الشرقية القديمة إجمالاً واستمر طقوسه في مدينة حمص بعد ميلاد المسيح. هذه الطقوس التي أثرت في الطرق الصوفية المسيحية والإسلامية للوصول إلى مرحلة "الإنجذاب" نحو الخالق.

قسم البحث إلى:

١ - العصبية العربية بين السيف والهجاء:

و جذر الصراع فيه عاملان يلتقيان بعنوان واحد "العصبية":

❖ صراع القيسية/اليمانية

❖ الصراع السني/الشيوعي

كما نتطرق فيه إلى آراء بعض الرحالة والمؤرخين في إثبات ما أورده الأدباء حول صفة "الحمق" الحمصية من خلال المشاهدات العيانية... !!!

٢ - على الصعيد الأدبي:

أعمال بعض الأدباء في إطلاق صفة "الحمق الحمصي" التي تحولت مع الأيام إلى الأجدب الحمصي، هذه الأعمال كانت مادة رئيسية في اقتباسات الكتاب والأدباء فيما بعد.

(١) بوعلي ياسين، بيان الحد بين الهزل والجد، ص ٢٠٩-٢١١

٣ - على الصعيد الديني الطقوسي (الليتورجي):

الحديث عن يوم الأربعاء وجذوره الدينية، وعبادات الربيع القديمة التي كانت سائدة في حمص وعيد المجانين المنذر.

٤ - على الصعيد النفسي:

يعرض هذا الفصل وجهة نظر حول علاقة البكاء والضحك بالنكتة، وعلاقة ذلك في موضوع النكتة الحمصية.

٥ - صراع العصبية المحلية ودور النكتة في هذا الصراع

٦ - عرض وجهات نظر لباحثين في أدب النكتة بالنكتة الحمصية.

obeikandi.com

العصبيات العربية بين حرب السيف وحرب الهجاء

ما هي العصبيات العربية التي كانت النكته الحمصية تجلُّ لها ؟

ما هي الأهمية التي كانت للحماصرة دون باقي بلاد الشام، والتي جعلت منه محطاً

سخرية " المدن الأخرى؟

للإجابة عن السؤالين، لا بد من العودة إلى العصبيات التي سادت جزيرة العرب قبل الإسلام وامتدادها في العصر الإسلامي، خاصةً الصراع القيسي/ اليميني الذي انتقل إلى مدينتي حمص وحماة مع الهجرة العربية لبلاد الشام وكان له طابعاً خاصاً نذكره في حينه. إضافةً إلى بعض القضايا المفصلية والحساسة التي لم تحسم بعد في التاريخ العربي وتحديدًا الصراع السني/ الشيعي نظراً لعلاقته الوثيقة في النكته الحمصية وربما تكون السبب الأساسي في إطلاق صفة الحمق على أهل حمص، مع الإشارة إلى تجنب الدخول في متاهات هذا الصراع لأن لكل من المتنازعين مبرراته ومؤيديه وبشكل أدق تاريخه الخاص به بتجاوزاته الدينية والسياسة غير البعيدة عن المزاج الشخصي أو الجمعي التي تجعلنا أمام " صياغة توراتية" (٢) له.

هذه الصياغة التي أعاد رجال الدين إنتاجها ليؤكد كل منهم صحة مذهبه أو طائفته أبعدتنا شيئاً فشيئاً عن قيمة تاريخنا كنتاج حضاري وصولاً إلى تكريس العصبيات المختلفة وإثباتها عن طريقه، وبالتالي لم نكن أمام " تدين التاريخ" فحسب وإنما أمام " مذهب التاريخ وتشظيته". وعلينا عند البحث فيه، ألا ننظر فيما كان " ينبغي أن يكون" وإنما " ما كان فعلاً" فتأريخ الدين شيء، وتدين التاريخ شيء آخر.

على مر التاريخ العربي تقنعت القبلية، والطائفية والسياسة بقناع العصبيات العربية وهذا ما ظهر بتتبع تطوراتها، إذ عاش العرب في بيئة صحراوية قوامها قبائل متفرقة، وكان النظام السياسي السائد في بلاد العرب قبل الإسلام إذا استثنينا

(٢) نقصد بـ"الصياغة التوراتية" الشكل وليس المضمون، وتحديدًا الهالة المقدسة لأبطاله

الممالك الصغرى في الجنوب والشمال، هو "النظام البدائي الذي يقوم على رابطة القرابة والذي تجتمع الأسر بمقتضاه في عشائر وقبائل" (٣). فكانت العصبية القبلية هي السياسة التي حكمت قبائل العرب عصوراً طويلة حتى بعد الإسلام.

وكان لها تشعبات وتفرعات تمتد أطرافها وتتشكل بأشكال الظروف السياسية والإقليمية التي تحيط بهم، فلها شكل في الشام، وآخر في العراق، وثالث في خراسان، ورابع في الأندلس" (٤).

ويتبين إدراك قبائل العرب لأضرار هذه العصبية، عندما يشتد النزاع ويكون السيف هو الحكم الفصل، حيث كانت القبيلة التي تعجز عن المواجهة بالسيف أو تريد حقن الدماء توفد السفراء لإيجاد روح من التفاهم والود يضمن لهم الاستقرار والأمن (٥).

في العصر الأول قبل الإسلام كانت العرب أمة شعر، لها حياتها الاجتماعية والسياسية الخاصة، "تعتمد في هذين النوعين من الحياة على العاطفة والشعور أكثر من اعتمادها على الحكمة والروية، تندفع بحكم هذا الشعور إلى الحرب أو السلم أو الخصومة" (٦) هذه العاطفة لم تختلف في الوقت الراهن عما كانت عليه في الماضي.

ويخبرنا التاريخ عن الكثير من الحروب التي امتدت عشرات السنوات وكانت وبالأعلى قبائل العرب في الجاهلية كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء... الخ. ولم يكن السيف هو الوحيد الذي اشترك في هذا الصراع وإنما قدمت العرب الشعر "وقوداً لهذه العصبية المضطربة" على حد تعبير د. طه حسين.

(٣) قصة الحضارة، ول ديورانت، ص ١٠

(٤) من تاريخ الأدب العربي، طه حسين، المجلد الأول، ص ١٤٢

(٥) السفارة السياسية وأدبها في العصر الجاهلي، محمد علي دقة، ص ١٩

(٦) من تاريخ الأدب العربي، المجلد الثاني ص ٤٢٣

العصبية والهجاء

مخاطر العصبية القبلية لم تكن لتخفى على شخصية فذة كشخصية النبي العربي، لذلك نجده حين غادر مكة إلى المدينة لما اشتد الخناق على دعوته فيها "قطع كثيراً من صلوات القرابة، واعتزم أن يستبدل بصلوات الدم صلوات الأخوة الدينية في الدولة الجديدة" (٧)

ولم تقتصر المواجهة بين العصبية الدينية التي أنشأها النبي وعصبية قريش على الاحتكام للسيف (معركتي بدر وأحد مثلاً) وإنما اشترك في العداوة مع السيف شعراء الأنصار وشعراء قريش يتهاجون ويتجادلون، وكان النبي يحرض أصحابه ويعد المقاتلين بالأجر والثواب ويتحدث أن جبريل كان يؤيد حساناً (حسان بن ثابت)^(٨).

وقد تذاكر الأنصار والقرشيين الهجاء الذي تبادلوه أيام النبي، وكانوا حريصين على روايته، يجدون في ذلك "اللذة والشماتة" ما لا يشعر به إلا أصحاب العصبية القوية بعد النصر. والتاريخ يروي أن حزم عمر بن الخطاب قد حال من الفتنة بين قريش والأنصار، فيروي ابن سلام في طبقاته أن عمر كان يتتبع الشعراء ويشدد على من خالف منهم قواعد الإسلام أقل مخالفة، وعمر فيما يحدثنا صاحب الأغاني قال لنفر من أصحاب النبي: قد كنت نهيتكم عن رواية الشعر لأنه يوقظ الضغائن^(٩). طبعاً لا يخلو عمر من نظرة ثاقبة للأمور فقد "عمل على تأسيس ملك المسلمين على شيء غير العصبية"^(١٠)، وهو الرابطة الدينية متابعاً بذلك سياسة النبي

(٧) من تاريخ الأدب العربي، المجلد الأول، ص ١٣٢

(٨) مصدر سابق، ص ١٣٢

(٩) مصدر سابق، ص ١٤٣-١٣٥

(١٠) مصدر سابق، ص ١٣٤

العربي، وكان عمر يقول: "إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده، فليُنظر قائده حيث يقوده، فأما أنا فورب الكعبة لأحملهم على الطريق"^(١١).

بعد مقتل عمر "تقدمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل أبا سفيان، فلم تصبح الخلافة في قريش فحسب بل أصبحت في بني أمية خاصة"^(١٢). وهكذا تولى عثمان الخلافة بعد عمر، فأقبل بنو أمية الذين كانوا في أيام الإسلام الأولى ألد أعداء النبي على المدينة ليجنوا ثمار قرابتهم للخليفة، ولم يكن في وسعه أن يقاوم مطالبهم، ولم يلبث أن "تولى بعض المناصب المجزية عشرة منهم كانوا يسخرون من تزمّت أتقياء المسلمين وبساطتهم"، وانقسم المسلمون بعد أن هدأت ثورة النصر أحزاباً متباغضة شديدة العدا، المهاجرون القادمون من مكة ضد الأنصار أهل المدينة، وأهل مكة والمدينة أصحاب السلطان ضد دمشق، والكوفة، والبصرة، وهي المدن الآخذة في النماء والتوسع، وبنو هاشم أهل النبي وعلى رأسهم علي ضد بني أمية وعلى رأسهم معاوية حاكم الشام^(١٣). و"اشتدت عصبية قريش، واشتدت عصبية الأمويين، واشتدت العصبية الأخرى بين العرب، وهكذا هدأت حركة الفتح، وأخذ العرب يفرغ بعضهم لبعض"^(١٤).

كان مقتل عثمان محصلة لتلك التعصبات وبداية لتفجر التعصبات الطائفية التي مهد لها الخلاف بعد وفاة النبي بين علي وأبو بكر حول الخلافة فكان من نتيجة ذلك التحولات السياسية على يد معاوية التي غلبت السياسة على الدين وعادت بالعصبية القبلية إلى بدايتها. وبذلك بدأت الصراعات السياسية تنمو في التربة التي هيأتها لها العصبية.

(١١) صانعو التاريخ العربي، فيليب حتي، ص ٣٥ - تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦٢٢

(١٢) من تاريخ الأدب العربي، المجلد ١، ص ١٣٥

(١٣) قصة الحضارة، ول ديورانت، ص ٧٨

(١٤) من تاريخ الأدب العربي، المجلد ١، ص ١٣٥

وقعة صفين، والنقمة على أهل حمص

طالب والي الشام معاوية بن أبي سفيان بالثأر لمقتل عثمان، وراح ينشر قميصه المملوح بالدماء، وأصاب زوجته التي قطعت وهي تدافع عنه.

واستعان معاوية في حربه ضد علي باليمانية (عرب الجنوب) واستعمل لذلك رأس أهل الشام شُرْحَبِيل بن السمط الكندي. وكتب إليه معاوية " ... إن هذا الأمر لا يتم إلا برضا العامة، فسرّ في مدائن الشام، وناد فيهم بأن علياً قتل عثمان، وأنه يجب على المسلمين أن يطالبوا بدمه" فبدأ بأهل حمص، فأجابه الناس إلا نساك أهل حمص^(١٥). وهكذا أخذ معاوية "يجند السوريين المسيحيين وعرب اليمن الجنوبيين الذين كانوا استقروا في سورية منذ زمن بعيد"^(١٦)

كان أهل حمص مع أهل قنسرين ميمنة جيش معاوية^(١٧). وخلال المعركة جمع الخليفة علي همدان، وقال لهم: يا معشر همدان، أنتم درعي ورُمحي، يا همدان ما نصرتم إلا الله ولا أحببتم غيره. فقالوا "أحببنا الله وأحبناك، ونصرنا نبي الله صلى الله عليه وسلم عليه في قبره، وقاتلنا معك من ليس مثلك، فارم بنا حيث أحببت".

قال علي:

ولو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلي بسلام
وقال لصاحب لواء همدان: "أكفني أهل حمص، فإني لم ألقَ من أحد ما لقيت منهم. فتقدم وتقدمت همدان وشدة شدة واحدة فضربوهم ضرباً شديداً متداركاً بالسيوف وعمد الحديد حتى ألجؤوهم إلى قبة معاوية، وارتجز فارس من همدان يقول:

(١٥) وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري، ص ٥٠-٥١

(١٦) صانعوا التاريخ العربي، مصدر سابق، ص ٦٨

(١٧) وقعة صفين، ص ٢٠٦

قد قتل الله رجال حمص حرساً على المال وأي حرس
عزّوا بقول كذب وحرص قد نكص القوم وأي نكص
عن طاعة الله وفحوى النص^(١٨)

بدا النصر واضحاً لعلّ لو لم يأخذ معاوية بالحيلة التي أشار إليه بها عمر بن العاص قائد جيش معاوية وأحد دهاة العرب، حيث رفع المصاحف على أسنة الرماح طالباً التحكيم إلى كتاب الله، الأمر الذي قبله علي وعين حكماً له أبو موسى الأشعري " وجاء قرار الحكمين ينزع عن علي حقه بالخلافة التي كان يتولاها، ويعطي معاوية، ضمناً، حقاً لم يكن قد أعلن عنه بعد "^(١٩) نتيجة لقبول علي التحكيم انقلب عليه جماعة من مؤيديه "الخوارج"، وأضحوا من ألد أعدائه، فسدد أحدهم إلى علي طعنة صائبة بخنجر مسموم وقعت في جبهته.

(١٨) وقعة صفين، ص ٤٣٧-٤٣٨

(١٩) صانعو التاريخ العربي، مصدر سابق، ص ٦٧

" الناصبيون "

يروى لنا المسعودي ما كان من " دهاء معاوية وإتقانه للسياسة واجتذابه قلوب خواصه و عوامه " و نلاحظ تأثيره الكبير على أهل الشام في رسالة وجهها للإمام علي، نقلها له رجل من أهل الكوفة، قدم إلى دمشق بعد موقعة صفين، جاء فيها: " أبلغ علياً أنني أقاتله بمائه ألف ما فيهم من يميز بين الناقة والجمل (يقصد أهل دمشق)^(٢٠)، وقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء (يقصد أهل حمص)، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها، وركنوا إلى قول عمر بن العاص: أن علياً قتل عمار بن ياسر، حين خرج لنصرته. ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن جعلوا لعن علي سنة، ينشأ عليها الصغير، ويهلك عليها الكبير"^(٢١).

أما الخليفة علي فكان حريصاً ألا تأخذ وقعة صفين شكل الحرب الإقليمية، وحاول حصرها بشخص مسببها، وهذا يتضح مما قاله علي بصفين " وأهل العراق يسبون أهل الشام: يا أهل العراق لا تسبوا أهل الشام، فإن فيهم رجالاً كارهين لما ترون، وإنه بالشام يكون الأبدال"^(٢٢) و كان عليّ إذا صلى الغداة والمغرب وفرغ من الصلاة يقول: " اللهم العن معاوية، وعمراً، وأبا موسى، وحبيب بن سلمة، والضحاك بن قيس، والوليد بن عُقبة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد " فبلغ ذلك معاوية فكان إذا

(٢٠) دخل رجل من أهل الكوفة، دمشق مع بعيه، فتعلق به رجل من دمشق وقال له: هذه ناقتي أخذت مني بصفين، فرفعا أمرهما إلى معاوية، وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينه يشهدون أنها ناقتة، فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير إليه، فقال الكوفي: أصلحك الله! أنه جمل وليس بناقة، فقال معاوية: هذا الحكم قد مضى، ودس إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره، وسأله عن ثمن بعيه، وبره، وأحسن إليه، (وأبلغه الرسالة المذكورة أعلاه)

(٢١) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص٤٠

(٢٢) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر(٤٤٩-٥٧١هـ)، تحقيق: علي شيري

قنت لعن علياً، وابن عباس وقيس بن سعد، والحسن والحسين^(٢٣).

أما معاوية فبعد توليه شؤون المسلمين شرع لثتم علي على منابر الصلاة يوم الجمعة ظناً منه أنه بهذا العمل يشوه شخصيته ويقلل من مؤيديه، و بقى الأمر حتى أبطله عمر بن عبد العزيز^(٢٤).

هذا الأمر "استتبعه رهط من خلفاء الأمويين كمعاوية الثاني بن يزيد الذي استتكر ذلك لكن هشام بن عبد الملك بعث هذه الفكرة من مدفنها".
وظهر الناصبيون (المتدينون ببغض علي) في الشام عموماً وفي حمص خصوصاً، وظل ذلك شأن بعض المحدثين الحمصيين إلى أن نبغ فيهم عالم الشام إسماعيل بن عياش الذي حدثهم بفضائل علي فكف أهل حمص عن انتقاصهم له^(٢٥).

هذه حالة عمت أيضاً البلاد الإسلامية حتى أن حاشية عامل معاوية الذي تولى الجزء الشرقي للإمبراطورية (بلاد الشعوب التي تتكلم التركية) كان حرسه مؤلف من خمسمائة فارس، ولديه قوة من الشرطة قوامها ألف رجل مسلح، ولديه شبكة من الجواسيس. "والويل كل الويل لمن يرسب في امتحان الولاء للدولة، وكان الامتحان لعن علي!"^(٢٦).

وكان أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني أبرز في معرض رده على محمد بن عبد الله المهدي الذي خرج من المدينة مطالباً كآسلافه بحق الخلافة بعد وفاة أبو العباس السفاح، أبرز بعد شرحه "نظرية العباسيين في وراثته الملك" فضل العباسيين في إلغاء هذه الظاهرة قائلاً "وكانت بنو أمية تلعن علي كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة، فاحتجنا له، وذكرناهم فضله، وعنفناهم وظلمناهم بمن نالوا منه"^(٢٧).

(٢٣) وقعة صفين، ص ٥٥٢

(٢٤) تاريخ سورية، مصدر سابق، ص ١٤٩

(٢٥) تاريخ حمص، ج ٢، ص ١١٢-١١٣

(٢٦) صانعو التاريخ العربي، ص ٨٠

(٢٧) طه حسين، المجلد ٢، ص ٣١٧-٣٢١

لكن هذه الظاهرة عادت في العهد العباسي، حيث كانت وسيلة تقرب الشعراء من مجلس هارون الرشيد ذم آل علي"، حتى أن الشاعر إبان بن عبد الحميد عندما حاول التقرب من بلاط الرشيد لينال عطاءه، نصحه البرامكة قائلين: يجب أن تذهب مذهب مروان بن أبي حفصة، فتذم آل علي، ففعل ونال الجوائز منه على قصيدته:

نشدت بحق الله من كان مسلما أعمُّ بما قد قلته العجم والعرب
أعم رسول الله أقرب زلفة لديه أم ابن العم في رتبة النسب
فإن كان عباس أحق بتلكم وكان عليّ بعد ذلك على سبب
فأبناء عباس هم يرثونه كما العم لابن العم في الإرث قد حجب^(٢٨)

و مروان بن أبي حفصة هو الذي نظم الدفاع عن نظرية العباسيين في وراثة الملك وصاغها في قصيدة أودت بحياته فيما بعد:

أنى أن يكونُ وليس ذاك بكائن لبني البناتِ وراثة الأعمام^(٢٩)

لكن تبادل اللعنات والشتائم لم يقتصر على الناصبيين، إنما كان "الشيعة في صلواتهم يدعون لعلي وآله من الأئمة الصالحين، ويلعنون الأمويين والعباسيين المغتصبين"^(٣٠).

(٢٨) مصدر سابق، ص ٢٩٥

(٢٩) مصدر سابق، ص ٣١٢

(٣٠) صانعو التاريخ العربي، ص ١٣٣

العرب والعصبيّة في بلاد الشام

من الناحية السياسية اصطحب العرب عند انتقالهم من الجزيرة عصبيتهم التي شكّلت أرضية الانقسامات الدينية والمذهبية بأدواتها المختلفة، الحرب والأدب. ولا يخفى على أحد أن التقسيمات الاستعمارية في العصر الحديث للبلاد العربية وضعت على أساس توزع العصبية القبلية والدينية.

بشكل عام أسس عرب ما قبل الفتح أربع ممالك في "الهلال الخصيب" نحو ٥٠٠ ق.م فكان الأنباط في شرقي الأردن، والتدمريون في تدمر، وهما من عرب الشمال أدت الهجرات الموسمية إلى قيام دويلاتهم. وكان الغساسنة في حوران وهم من عرب الجنوب، والمناذرة جنوب العراق^(٣١). كانت هذه القبائل أدوات للصراع بين "قطبي العالم" آنذاك الفرس والروم.

وكانت الشام و الجزيرة، منذ الجاهلية، مطمح أنظار أهل البادية، وموضع أهوائهم، وقد تردد عليها أهل البدو من بكر و تغلب في الجزيرة. فلما جاء الإسلام و كان الفتح، كثر اجتماع العرب بالشام و الجزيرة، و اشتدت قوتهم في هذه البلاد^(٣٢)، حتى وصل "عدد العرب في بلاد الشام و فارس نصف مليون نسمة قبل أن يحل عام ٦٤٤م"^(٣٣).

وفي عهد الخلفاء الأمويين كان عرب الشام و الجزيرة، أشد العرب تمسكاً بعصبيتهم، يؤثرونها على كل شيء، ولذلك بذلوا كل ما يستطيع أن يبذله إنسان من الفنون و القوة لنصر بني أمية^(٣٤). لأن الدولة الأموية منذ أيام معاوية قامت على فكرة العصبية العربية "القومية" فيما يتعلق بالأجانب وعلى فكرة العصبية القبلية

(٣١) الميثولوجيا السورية- أساطير آرام-، د. وديع بشور، ص ٢٤-١٢٤

(٣٢) من تاريخ الأدب العربي، طه حسين، المجلد الثالث، ص ٤١٣

(٣٣) قصة الحضارة، ص ٧٧

(٣٤) من تاريخ الأدب العربي، المجلد الثالث، ص ٤١٤

فيما يتعلق بالعرب أنفسهم. فكل خليفة هو عربي والأصل الذي تقوم عليه نظريتهم هو أن يسود العرب وأن لكل خليفة عصبية الخاصة فهو إما متأثر بالعصبية اليمينية أو المضرية، ولكل خليفة إضافة لذلك عصبية أخص من حيث القبلية، فهو يتأثر بهذه أو تلك من قبائل مضر أو اليمن^(٣٥).

وقد فهم معاوية طبيعة أهل الشام إذ جاء في وصيته لابنه يزيد قبل توليه الحكم: " انظر أهل الشام فإنهم بطانتك، فإن رابك من عدوك شيء فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم"^(٣٦).

لكن العصبية الطائفية/السياسية توحدت في العصر العباسي، حيث "بدأت عملية الدمج بين العرب وغيرهم من الأجناس البشرية في وقت مبكر عند قيام الدولة العباسية وازدادت نشاطاً وحدةً في عهد المأمون"^(٣٧) لاسيما الفرس، لدرجة أن النساء الفارسيات غلبت في دور الحريم، "حتى أن أمهات جميع خلفاء العباسيين السبعة والثلاثين إلا ثلاثة منهم كنّ جواري"^(٣٧). ولم يكن بين خلفاء بني العباس سوى الأمين من أبوين قرشيين^(٣٨) فأمه زبيدة زوجة هارون.

(٣٥) من تاريخ الأدب العربي، المجلد الثاني، ص ٢٤

(٣٦) مروج الذهب، المسعودي، المجلد الثالث، ص ١٥

(٣٦) صانعو التاريخ العربي، ص ١١٧

(٣٧) قصة الحضارة، ص ٨٨

(٣٨) صانعو التاريخ العربي، ص ١٠٩

الحجاز - دمشق - العراق والانتقال إلى اللهو

في عهد بني أمية " استمرت حانات الخمرة ودور المقامرة، حيث كان لعب النرد من أحب ضروب اللهو، في ازدهارها، بل إنها تمتعت أحياناً برعاية بعض المتنفذين حتى من المسلمين. وكان الرهبان أرباب خبرة واسعة في صناعة الخمر، وجني العسل، وتعهد الإثمار والأزهار، ويفترض المؤرخ فيليب حتي، أنه في غالب الظن أن الأديرة كانت تشتمل على دار ضيافة للهو والسمر"^(٣٩).

ونتيجة لشراء مكة والمدينة من غنائم الحروب كثرت فيها السراري، وجرت فيها الخمر المحرمة في الإسلام، وأخذ المغنون يطربون سكانها، وبذلك غلبت نزعة الاستمتاع بمباهج الحياة الأموية على نزعة التقشف والتزمت التي اتصف بها أبو بكر وعمر، في أقدس مركزين من مراكز الإسلام"^(٤٠).

وكان بعض تجار الرقيق يعلمون الجوارى الموسيقى والغناء(القيان)، وفنون فتنه الرجال، ثم يبيعونهم بأثمان غالية"^(٤١).

طباعاً كان لطبيعة التنظيم الاجتماعي الذي ساد بعد أن ضرب الحجاب على المرأة الحرة، وانسحبها إلى المنزل، دور كبير في أن يحول حجابها وجهها بينها وبين الرجل، وأفسح سفور الجارية وثقافتها الطريق لها لتحتل وقته وقلبه واهتمامه... و"هكذا خلال قرن من الزمان أصبحت بيوت القيان أماكن شراب وفسوق بعد أن كانت مخصصة للسمع والتحدث فقط، وهذا التطور المتدني في وضع بيوت القيان يصور بصدق حركة اللهو وانتقالها من إعجاب وشغف بالفن الغنائي إلى انغماس في الشراب وانزلاق نحو الفجور"^(٤٢).

(٣٩) تاريخ سورية، ج٢، ص ١٠٠

(٤٠) قصة الحضارة، ص ١٥٣

(٤١) قصة الحضارة، ص ١٣٩

(٤٢) بيوت القيان، بقلم د. نبيه عاقل مجلة العربي عدد ٥٢ - مارس، ١٩٦٣

لقد كان "للجيل الثالث" الذي ولد أواخر أيام عثمان وأيام معاوية^(٤٣) وشب على استقرار أمور الدولة إثر تقدم الفتوح والانتهاء من الفتن دور في التخفيف من حدة العصبية فهو جيل شب على الرفاهية التي وفرتها له مغانم الحروب.

وبالرغم من أن هذا الجيل لم يكن عربياً خالصاً كما كان الجيل الأول (معاصر النبي وبداية الإسلام) والجيل الثاني (لم يعاصر النبي ونشأ في عهد عمر وعثمان)^(٤٤)، من ناحية التكوين العقلي والتثقيف الذي كان الفتى يتأثر به من أمه^(٤٥)، لأن الخليفة من الأمويين أو الأرسطراطي كان يجمع في داره من الأزواج العربيات الأحرار ونساء من بيئات مختلفة، على الرغم من ذلك فقد كان هناك تفريق ناتج عن العصبية "المخفضة" التي مازالت تفرق بين عربي الأب والأم وغيره وأصبحنا نسمع ألقاب كابن الرومية، ابن الفارسية، ابن الحبشية... كما يقول د. طه حسين.

لكن "التهجين الحضاري" إن صحت التسمية بلغ أقصاه زمن العباسيين حتى أن من بين خلفائهم كان الأمين فقط عربي الأب والأم. وبلغ التأثير الحضاري أقصاه أيضاً خاصة التأثير بالحضارة الفارسية، سيما أن أغلب أصحاب القيان (الأمّة المغنية) كانوا "من الموالي غير العرب إلا أقلية منهم كانت عربية كما تدل على ذلك أسماؤها"^(٤٦).

و الإمام الغزالي وصف في الجزء الأول من كتابه "مطالع البدور في مجالس السرور"، مدى التحلل من التعاليم وتفشي التهلك وشرب المسكرات في القصة التي ذكر فيها أن أحدهم عمد سنة ٣٧٧ هـ إلى تسمية ولده مداماً وكناه أبا الندامى

(٤٣) من تاريخ الأدب العربي، ج٢ ص١٧

(٤٤) مصدر سابق ج٢ ص١٦

(٤٥) مصدر سابق ج٢ ص١٩

(٤٦) مجلة العربي مرجع سابق

وسمى ابنته الراح وكنّاها أم الأفراح وسمى عبده الشراب وكنّاها أبا الإطراب وسمى وليدته القهوة وكنّاها أم النشوة^(٤٧).

تحول العراق من موطن للجد إلى موطن للمجون؟

كان العراق موطن الجد الخالص في جميع أنحاء الحياة الإسلامية طوال القرن الأول، في السياسة (المعارضة السياسية، الأحزاب السياسية مثل الخوارج والشيعة والمعتزلة) والدين (من حديث وسنن وأخبار) والعلم (علو اللغة والنحو)^(٤٨).

لكن كتب التراث تشير إلى أنه في القرن الرابع الهجري، انتشرت الفواحش وافتتاح محلات الدعارة العامة لغير القادرين على فتح المحلات الخاصة. واستفحل التسري واستيلاء الجوّاري اللاتي كن أمهات لأغلب خلفاء بني العباس وللخاصة من الناس على حد التعبير الشائع:

إن أولاد الجوّاري كثروا يا رب فينا
رب أدخلني بلاداً لا أرى فيها هجيناً^(٤٩)

يرى د. طه حسين، أن هذا التحول إلى موطن للمجون لم ينشأ في العراق وإنما وفد إليه كنتيجة طبيعية لتطور الشعر في الحجاز بعد أن كثرت في المدينة مجالس اللهو والغناء، إذ أصبح الشعر في المدينة مضطراً أن يلائم بين نفسه وبين الموسيقى، فكان الشعر يُصنع ليتغنى به، وأكثر من ذلك راعى الشعراء عند وضع شعرهم بالإضافة للسمع (الموسيقى) البصر (حركات الراقصات في الرقص). في البداية أنكر العراق، يضيف د. طه حسين، كل ذلك إنكاراً شديداً، وكان التنافس بين العراق والحجاز حول هذه اللذات من الأشياء التي يتندر بها، فيتندر العراقيون بخنثة الحجازيين ويتندر الحجازيون بغلظة أهل العراق. ومع يزيد ابن عبد الملك انتقلت مظاهر اللهو إلى قصر الخلافة الأموية في الشام عندما اشترى جارية كانت من أساتذة الغناء في المدينة ورئيسة مدرسة فيها، فكان لها أصدقاء من المغنين

(٤٧) إخوان الصفا: قراءة معاصرة، كمال راغب الجابي. مجلة المعرفة السورية العدد ٤٨٤

(٤٨) من تاريخ الأدب العربي، ج ٢، ص ٥١

(٤٩) مجلة المعرفة، مصدر سابق

والراقصين والراقصات والشعراء وأصحاب اللهو والمجون، كان ذلك رغم أن أهل الشام من العرب الذين كانوا عماد الخلافة الأموية، وكانت كثرتهم من اليمانيين الذين كانوا لا يعنون بهذه الأشياء، لكن آثار قصر هشام بن عبد الملك تُظهر أنه أقيم على طراز القصور البيزنطية وما فيها من صور وتماثيل وزخرف اتخذت لتكون محيط بيئة فيها كثير من اللهو ومن الحياة الفنية المعقدة، وقد ظل يزيد ولياً للعهد طوال خلافة هشام أي مدى عشرين سنة وخلالها انتقلت هذه الظاهرة إلى الشام مرعية سراً أو جهراً طوال ربع قرن وبذلك أصبح هذا اللهو معرضاً لانتشار هائل لأن الناس على دين ملوكهم، و أكبر الظن أنه من خلال صلوات أهل العراق بالقصر وبأمير العهد، ثم الصلوات العادية اليومية والحياة العامة، انتقلت هذه الحضارة تدريجياً من الشام إلى العراق و أتاح لها النمو في العراق سببين أساسيين برأي د. طه حسين :

١- لأن فيه القبائل العربية وبنوع خاص المضرية العدنانية من الحجاز ونجد، والعدنانية أسرع العرب إلى الحس وإلى التأثر بحياة العاطفة، فيهم نشأ الشعر القديم، وهم الذين حافظوا عليه في العصر الإسلامي، وهم أصحاب لذة دائمة يجدونها ويتهالكون عليها منذ عصورهم القديمة في مظاهر الخمر والغناء.

٢- والسبب الأهم حدث عندما ضعفت السلطة الأموية وقامت الدولة العباسية وفي ذلك الوقت طالب الموالي بالمساواة مستغلين إقبال الخلفاء للذتهم أولاً، وللخروج على التقاليد ثانياً، فحياة الثورة التي كان يحيها الموالي في العراق كانت في ذات الوقت الذي كان فيه قصر الخليفة وولي العهد يتحضر على طريقة الحجازيين.

ويقول المستشرق ول ديورانت إن اللهو لم يقتصر على ذلك وإنما شذ لدرجة نشأت طائفة من المخنثين المحترفين تشبهوا بالنساء في ثيابهم وعاداتهم، يصفرون شعورهم، ويصبغون أظفارهم بالحناء ويرقصون الرقص الخليع، وعاقبهم سليمان بن عبد الملك بخصاء من كان في مكة من المخنثين، وأبصر الهادي امرأتين تباشران عملية السحاق فأمر بقطع رأسيهما، على الفور. لكن اللواط والسحاق رغم ما

فرض عليهما من العقاب الصارم أخذاً ينتشر انتشار سريعاً حتى كانا كثيرى الحدوث في بلاط هارون الرشيد^(٥٠).

ما يهمننا في هذا الموضوع أن فترة " ركود نسبي على المستوى الاجتماعي-السياسي " وحتى الأخلاقي - وليس الأدبي- مقارنة مع العقود الأولى أتاحت المجال لانتشار كل ما هو شاذ أحياناً و مسل وظريف حتى أن هناك من اتخذ من حماقة مهنة يعتاش بها وتروي كتب التراث عن بعض الأذكياء أنهم رأوا أن سوق النوادر عن الحمقى رائجة تدر على أصحابها الأموال الطائلة ، ومنهم الشاعر الحمدوني، الذي لامه الناس على تحامقه ، فقال : " حماقة تعولني خير من عقل أعوله ثم أنشد :

عذلوني على حماقة جهلا وهي من عقلهم الذ وأحلى
حمقي اليوم قائم بعيالي سيموتون- إن تعالقت- ذلاً^(٥١)

فالعامّة لم تعد لأموال السيف وإنما للكلام الرقيق وعليه " فالشعر الذي رتع فيه جرير الفرزدق أوائل القرن الثاني مل منه الجيل الجديد " كما يقول د. طه حسين، وهكذا استعيدت مع الأيام والسنون عصبية الماضي بطرق أخرى مختلفة كان منها القصص الهجائي ما أدى إلى استعارة " حرب الأيديولوجية الفكاهية "، متخذة من الآراء والعقائد والانتماءات وقوداً للصراع، ولما كان الشيعة والقيسية ألد أعداء أهل حمص أخذوا يؤلفون القصص والنوادر عليهم.

(٥٠) قصة الحضارة، ص ١٣٥-١٣٦

(٥١) علي القيم- صحيفة البعث- ٢٠٠٤/٦/١٠

حرب الأديولوجية الفكاكية

حمص والتعصبات الطائفية/القبلية

يتجلى الغموض الذي يكتنف تاريخ النكتة الحمصية في كونها تتشكل في قسمها الأعظم من التاريخ الشعبي ولكون هذا التاريخ "تطور وتحور وعاش حراً طليقاً، قبل أن يقيد الطبع والحفظ"^(٥٢) فقد بقي بعيداً عن تاريخ السلطان وهو التاريخ المعتمد عبر العصور. وهناك الكثير من الظواهر التي يجب العودة فيها إلى التاريخ الشعبي ولا سيما موضوع النعوت والألقاب التي تكنى بها مدن أو أشخاص فكما هو معروف من منطلق الحياة اليومية فإن لقب شخص يعطينا فكرة كاملة عنه. والذاكرة الشعبية تحتفظ بالكثير من ألقاب العائلات للدلالة على صفاتها، وإذا سألت شخص من هذه العائلة أو أحد المقربين منهم عن سر التسمية يقدم لك تفسيراً مختلفاً تماماً عن تفسير أهل الحي وغيرهم. لذلك فالتاريخ الشعبي واضح وصريح ومباشر لكن عوامل الكبت الاجتماعية تقيد وتدفعه بعيداً في الذاكرة الشعبية أو اللاوعي الشعبي ويبقى يظهر على شكل أساطير وقصص وحكايات ونوادير عن شخص ما أو قبيلة أو مجتمع معين.

يمكن تقسيم الجانب التاريخي للنكتة الحمصية إلى قسمين، ما يتداول على أنه رواية شعبية انتقلت من جيل لآخر وتم تحريفها بفعل الدور الذي تمارسه الذاكرة الشعبية على الأحداث. والثاني ما جاء في بعض المصادر التاريخية من روايات متفرقة أغلبها يعتمد على السرد الشعبي للحدث.

الرواية الشعبية:

أبرزها تلك التي تقول أنه عندما اجتاح تيمورلنك بلاد الشام كانت المدينة الوحيدة التي سلمت من أذاه هي حمص، لأن سكانها تظاهروا بالجنون في الشوارع

(٥٢) أديب الأسطورة عند العرب، فاروق خورشيد

وعلقوا على رؤوسهم القباقيب وأخذوا يقرعون على الصحون النحاسية، وأشاعوا أن مياه العاصي تصيب كل من يشربها بالجنون. هذا ما جعل الجيش الجرار الذي يرافقه تيمورلنك يمر مروراً سريعاً بحمص، حدث ذلك يوم الأربعاء. هذه الرواية تروى أيضاً عن الحملات الصليبية بدل تيمورلنك. المهم أن الرواية الشعبية تجانب الصحة كما تقول المصادر التاريخية في أن تيمورلنك مرَّ بحمص مروراً دون التعرض لها بأذى وتختلف الروايات من شخص لأخر، منها أنه^(٥٣) :

❖ { عندما دخل التتار بلاد الشام كانوا يعيشون فيها فساداً وتدميراً وعندما حاولوا الاقتراب من مدينة حمص، اجتمع وجهاء المدينة، وبعد اجتماع مطول ومباحثات مكثفة قرر كبير الحماصنة الاحتيال على المغول وصادف ذلك أنه كان يوم الأربعاء وقرروا أن يفتحوا أبواب المدينة فلما دخلها المغول اندهشوا عندما وجدوا أهلها يلبسون ثيابهم بالمقلوب ويسيروا إلى الوراى ويتحدثون بطريقة معكوسة، فأمر قائدهم جيوشه بالهروب بسرعة إلى خارج المدينة خوفاً من أن يصيبهم المرض الذي أصاب أهل حمص وبعد ذلك قرر كبير الحماصنة اعتبار يوم الأربعاء مناسبة وطنية وعيداً سعيداً، وصارت سمة لكل حمصي وشيئاً يفخر به }.

❖ { أثناء الاحتلال العثماني، كان هنالك آغا على مدينة حمص وكان يفرض على سكان المدينة أن يلبسوا قبقاباً في الصيف وصندلاً من الجلد في الشتاء. وعندما قرر الوالي زيارة مدينة حمص جاء توقيت الزيارة في شهر شباط، ومعروف أن شباط صاحب مزاج ومتقلب الأجواء ولم يعرف الحماصنة كيف ينفذوا الأمر، فلبسوا في رجل صندل الجلد وفي الأخرى قبقاب الخشب وحدث أن تساقطت الأمطار فوقوا على رجل واحدة حاملة الصندل ورفعوا الأخرى حاملة القبقاب. وكان ذلك يوم الأربعاء }

❖ ومن الروايات أيضاً أن { أصل قصة يوم الأربعاء، أنه في حرب علي ومعاوية كان قد أرسل الأول رجلاً إلى بلاد الشام ليستطلع الأخبار وحدث أن سرق جملته...

(٥٣) صحيفة الدومري الساخرة- العدد-٣٩- الاثنين ٢٦/١١/٢٠٠١

ودخل إلى المدينة لبحث عن جملة وإذا بالمؤذن يؤذن لصلاة الجمعة وكان ذلك يوم أربعاء. وصل هذا الرجل إلى معاوية ليسأله ذلك فقال له: اذهب إلى مولاك وقل له سوف أحارب بقوم لا يفرقون بين الناقة والبعير، ويصلون الجمعة في أي يوم يريده الأمير..}

❖- ومنهم من يرى: { أن أصل التسمية متعلق بالصراع الذي كان قائماً بين المسلمين في فترة سابقة ويؤكد المؤرخون أن أحد أطراف الصراع قام بتعبئة جند حمص للإسراع بها والسيطرة على مياه الفرات إلا أن الحماسة طلبوا منه التريث حتى صلاة الجمعة وما كان من زعيم الحماسة إلا أن أمر بالنداء لصلاة الجمعة، وكان ذلك اليوم أربعاء، فوسمت حمص وأهلها بعيد يوم الأربعاء^(٥٤)}

نلاحظ أن الآراء السابقة كانت عبارة عن روايات تناقلها الأشخاص، فمنهم من رواها له جده أو والده أو أحد المقربين، أو سمعها عن طريق الصدفة، مع العلم أن لبعضها أساس تاريخي، حورته "الذاكرة الشعبية"، ولكن كل الآراء السابقة ليست كافية لتفسير كيف استطاع يوم الأربعاء الحمصي أن يحافظ على حضوره كل تلك القرون.

نعوت وألقاب:

يرى الأستاذ أنطون سابا في كتابه حمصه: أن صيت الجدبة الحمصية نقل وما يزال ينقل إلى أصقاع الأرض من أهالي أربعة مدن سورية، حماه، دمشق، حلب، اللاذقية، ولهؤلاء ألقابهم أيضاً، وأغلبية الألقاب كانت عندما دخل تيمور لنك سورية، وكانت أول مدينة يدخلها هي حلب، فبعد مقاومة أهاليها لجيشه الجرار، كانوا يقولون "نحنا الحلبية رجيل" أي رجال "رجلين" لكنها كلفتهم إثر انتصاره، جدد أنف كل ذكر منهم وقطع أذنه، حتى غدا واحدهم كالجربوع. ومن هنا لقبهم "بالجربيع".

(٥٤) راجع رسالة علي معاوية كما أوردها المسعودي، ص ١٤

وعندما دخل إلى اللاذقية رفع أهلها الرايات البيض، لكنهم انقلبوا عليه غدرًا، فأحرق اللاذقية بأهلها وحيواناتها ولم ينج منهم أحد. ولقبوا "بالمنافقين". وبعد انتقامه توجه إلى حماه، وكان سمع عن مراحلهم من عبارة كانوا يرددونها تقول "نحن الحموية منيحين" من نحر وقاوم أي لا يقاومهم أحد.

وعندما دخلها تيمورلنك، أمر بقلع عين واحدة لكل ذكر فيها، لكثرة ما أصاب رجاله من سهام الحمويين، فلقبوا "بالعوران أو الطوطان".

أما أهالي دمشق فقد أرسلوا يتحدثون تيمورلنك، وأنهم سيلقنوه درساً لن ينساه، لكن كان العكس فأمر بقتل الذكور فيها واستباحة النساء، ومنها نعت الجيل الجديد "ببناديق تيمورلنك".

وعندما دخل تيمورلنك حمص، يتابع الأستاذ أنطون سابا، استقبله أهلها بالنخيل وأغصان الزيتون وراحوا يهتفون له "أهلاً وسهلاً بملكنا الجديد" ففرح تيمورلنك لهذا الاستقبال وتقبل هدايا أهل حمص، وهكذا سلم أهل حمص من أذاه. ولما وصلت الأخبار إلى منافسيهم "تملكهم الغيظ والحسد" وراحوا يتقولون "جذبها أهل حمص على تيمورلنك يوم الأربعاء فعفا عنهم" ثم اقتصرت عبارتهم فيما بعد "جذبها أهل حمص يوم الأربعاء" لتبريد نار حسدهم من نجاة أهل حمص دونهم. يقول الأستاذ أنطون: "... أن يكون الإنسان أعوراً ظاهرة طبيعية جداً، ثم أن يتهم بالبندقة فعلم ذلك عند الله، أما أن يصاب الأدمي بجذبة مؤقتة لا بل وفي يوم محدد، أليس هذا مجرد ادعاء من حاسد لمحسود عجز عن الإتيان بما اجترح من خارق الذكاء للنجاة من أذية وحش آدمي شرس".

ونضيف على قول الأستاذ أنطون أن أهل حمص لم يوصفوا بالجبن أو الاستسلام لأنهم لم يقاتلوا تيمورلنك، ولم يقبوا بالضعفاء أو المستسلمين، لأنهم معروفون بقوتهم، حتى أن ياقوت الرومي، يقول: "أن اسم حمص مشتق من الحماسة، لأنها مدينة الأقوياء"^(٥٥).

(٥٥) منير أسعد، تاريخ حمص، ص ٣٨

وحتى الآن يقال "حمص العدية" وهي مشتقة من الاعتداد بالانفس. ويقول الرحالة ابن جبیر [قام برحلته بين عامي ١١٨٢-١١٨٥ م] : " أهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو ، وبعدهم في ذلك أهل حلب " . إذاً تعامل أهل حمص مع عدوهم بالطريقة السلمية .

عن نعوت المناطق الأخرى يقول بو علي ياسين في كتابه بيان الحد بين الهزل والجد : ينعت الشوام بالبخل و الخبث والملعنة ويقال / بناديق الشام أو بناديق تيمورلنك/. والحوارنة بالتخلف والفظاظة ، حوراني غازل حبيته قائلاً: دقات قلبي وقلبك مثل رفضات البغل ". وفي جبل العرب يوصفون بالعناد والشجاعة ، يقال/الدروز كبار روس/. ويطلق على أهالي الجزيرة ديرية أو شاوية وتعني رعاة الغنم ، دون التمييز بين أهالي الحسكة ودير الزور والرقعة ، ويوصف الشاوية بضعف التمدن " ديري سافر خارج دير الزور لأول مرة في حياته ، فقال عندما غادرها: بخاطرتش يا سوريا ". أما أهالي حلب فيوصفون بالفضول والحشرية " كان مصطفى يهرش في جسمه ، فسأله أبو أحمد : هلق إنتي كل قديش بتتحمم يوب ، أجا ب والله يعني كل كام سنة بتحمم شي مره ، أجا ب أبو أحمد يا لطيف! إيشو سمكة خاي ". ولا ينجو أهالي ادلب من السخرية ، فيقول البعض: أن الداخل إلى المدينة تستقبله عبارة " أهلاً بكم وبأولادكم " . أما أبناء اللاذقية فيقولون عن جيرانهم أبناء طرطوس " غسل إيديك إن صافحت طرطوسي"^(٥٦)

نعوت وألقاب من العالم:

ولكثير من الأقوام نكت يرمون بها أنفسهم ، أو يرمون بها غيرهم ، وكلها ترجع إلى صفاتهم وخصائص جبلتهم التي يمتازون بها عن غيرهم ، فالإنجليز مثلاً مصابون بالبرود والإسكتلنديون بالبخل كاليهود ، والطيالان يتصفون بالشجاعة على طريقتهم ، وبالتالي تكون النكت على هذه الصفات "^(٥٧). والفرنسيون يتندرون على غباء البلجيكين ، والغريب أن برنامج فرنسي مشهور عن السحر- على قناة-MTV

(٥٦) بيان الحد بين الهزل والجد، ص٢٢٦ وما يليها

(٥٧) النكتة المصرية، عبد العزيز سيد الأهل، ص١٩

تتدر فيه أحد الضيوف قائلاً أن البلجيكين "حيوانات غبية"، و أغلب الدول الأوربية تتدر على البلجيكي "المعتوه، الغبي...".

ويروى الأستاذ جهاد الخازن في إحدى حلقات زاويته المشهورة "عيون وآذان" التي يكتبها في جريدة الحياة، أن الأوربيين عامة يتتدرون على "الأميركي الغبي":

❖- ما الفرق بين أميركي وببغاء؟ واحد عالي الصوت، يردد كل ما يسمع بدون تفكير ويوسخ الأرض حوله، والثاني طائر.

❖- أميركي غبي وأميركي ذكي وبابا نويل كانوا يسيرون في الشارع، رأوا مائة دولار، أي من الثلاثة يلتقطها؟ الأميركي الغبي لأنه لا يوجد أميركي ذكي ولا بابا نويل.

هذه النكتة تروى اليوم عن أهل حمص على الشكل التالي:

حمصي ذكي وحمصي غبي و ديناصور كانوا يسيرون في الشارع، رأوا مائة ليرة، أي من الثلاثة يلتقطها؟ الحمصي الغبي لأن الحمصي الذكي والديناصور انقرضوا منذ بدء التاريخ.

تيمورلنك، سيد الدمار

ربما أخذت هذه الظاهرة مداها بعد "سبي" تيمورلنك بلاد الشام، لكن بعض المصادر التاريخية تخبرنا "أنه لم يدخل حمص لأن فيها قبر خالد بن الوليد". وذلك "بعد أن خرج لاستقباله أحد أعيانها ويدعى" عمر ابن الرواس الذي أحسن استقبال الفاتح وقدم له هدايا فاخرة. و" بذلك كانت حمص هي المدينة الوحيدة في بلاد الشام التي سلمت من بطش تيمورلنك"^(٥٨).

بالعودة إلى الرواية نرى أن حرب الأيديولوجية الفكاھية، اتخذت مظهراً تعويضياً للهزيمة المرة على يد هذا السفاح وهذا ما أتاح انتشار العديد من الألقاب لهذه المدن فأصبحنا نسمع جدعان حلب، منافقي اللاذقية، بناديق الشام، عوران حماة. و لم يبق من هذه الألقاب إلا جدبان حمص وبدرجة أقل بناديق الشام و عوران

(٥٨) تيمورلنك وحكايته مع دمشق، أكرم حسن العلي، ص١٤٢

حماءة. روى لى أءء مسنى مءىنة ءمص بىء شعر عن صفاء أهل بعض المءن السورىة
أنشه أءء ظرفاء ءمص:

لءمص أم لءماء المرء ىنءسب هناك العمى وهنا المعشر الءءب
وفى ءمشق علاكاء مصءىة ولءنءاءة ءار اسمها ءلب

ولكن، هل من صفاء أهل ءمص الءءبءة، لءلك ءلقى عنهم النكء ؟

لاءظنا أن الرواية الشعبىة لا ءعود إلى ءءور الموضوع، لءلك فالنءاءء الءى
سنءصل علفها بعء الاطلاع على المصاءر الأءبىة و ءارىءىة سوف ءءببنا على ءلك.

أما المصاءر ءارىءىة، فءقسمة المسءوى ءارىءى إلى قسمةن: الصراع
السنى/الشىعى الصراع القىسى/الىمنى.

فالنكءة الءمصىة لىسء فى شكلها الءالى إلا الصىفة العصرىة للقصص
والنواءر الءى نقلها مؤرخىن مءل المسعودى والأءباء من أمءال ابن الءوزى.

الصراع السني/الشيوعي

إن لم تكن موقعة صفين- السابقة الذكر- بداية الصراع السني/ الشيوعي "المسلح"، فقد أخذت هذا الطابع مع مرور الوقت حاملة معها نقمة الإمام علي على أهل حمص.

يقول المؤرخ الألماني فرانتس ألتهام في كتابه "إله الشمس الحمصي" أن حمص "تعد من أكثر مدن سورية تعصباً (تعصب ديني) في الماضي والحاضر"^(٥٩).

لكن الباحث فراس السواح الذي راجع ترجمة هذا الكتاب يقول في معرض تعليقه على هذه النقطة: "لا ندري كيف كون المؤلف فكرته هذه عن أهل حمص، ذلك أن شخصية الحمصي كما يعرف الجميع تتصف بالانفتاح والسماحة والطابع الشمولي، وهو لا يتعصب حتى لمدينته ذاتها".

رغم ما اتصفت به حمص من شمولية و انفتاح، إلا أنها كانت مركز لتجاذبات صراع العصبية الدينية/السياسية العربية، فأهل حمص كانوا من أشد الناس على علي، بصفين في حربه مع معاوية، وأكثرهم تحريضاً عليه وجداً في حربه، على ما يقول القزويني وياقوت الحموي.

ولكن يخبرنا التاريخ أن عصبية أهل حمص لم تلتف حول معاوية فقط، رغم أن سورية كانت طيلة العهد الأموي "على مذهب أهل السنة، لكن الضغط الذي تميزت به سياسة العباسيين أفسح المجال أمام تعاليم العلويين"^(٦٠)، فلما انقضت أيام الأمويين "صاروا (أي أهل حمص) من غلاة الشيعة، حتى أن في أهلها كثير ممن رأى مذهب النصيرية، وأصلهم الإمامية الذين يسبون السلف"، كما يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان.

(٥٩) إله الشمس الحمصي، فرانتس ألتهام، ت.إيرينا داود، ص٥٨

(٦٠) تاريخ سورية، مصدر سابق، ص١٨٩

لكن - وبشيء من التوسع- كان لانتشار المذهب الشيعي في بلاد الشام بشكل عام أهمية بحثية خاصة، فبعد انهيار وضع الشيعة في العراق، نتيجة عدم التزام معاوية بتنفيذ معاهدة الصلح مع الحسن بن الإمام علي، وخصوصاً البند الخامس، الذي أمن أصحاب علي وشيعته، تشتتوا في البلاد المحيطة. وكان لبلاد الشام النصيب الأوفر من هذا المعتكف. ففي هذا الإطار حصلت الهجرة الهمدانية الكبرى^(٦١)، وكانت حمص أحد مواطن خمسة استقر فيها المهاجرون الهمدانيون القادمون من الكوفة^١.

و تذكر دائرة المعارف للبستاني أن أهل حمص أطاعوا مذهب القرامطة لأنهم شيعة. وانحازوا إلى القداح داعي الفاطميين منذ أول ظهورهم^(٦٢).

وقبل ذلك دانت بالمسيحية، وقبلها كان لها ديانة خاصة بها دانت بها الإمبراطورية الرومانية هي ديانة "الشمس" التي جعلت كبير آلهة الأوليمب "جوبيتر" تابعاً لها. تظهر هذه الحقائق أن أهل حمص كانوا كثيري التقلب في الأمور الدينية، وسنوضح أسباب ذلك في حينه^(٦٣).

يروى أبو الفرج الأصفهاني :

" أن خطيب أهل حمص كان يصلي على النبي (صلعم) على المنبر وكان أهل حمص كلهم من اليمن لم يكن فيهم من مضر إلا ثلاثة أبيات (من بات)، فتعصبوا على الإمام وعزلوه فقال الشاعر ديك الجن الحمصي (وهو شيعي معتدل) يهجو أهل حمص:

(٦١) همدان قبيلة شهيرة يعود إليها الفضل في نشر التشيع في "الشام"، اعتمد عليها الإمام علي في حربه لمعاوية وقال فيها:

ولو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلي بسلام

١١ الشيخ جعفر المهاجر- التأسيس لتاريخ الشيعة (٢) ستة فقهاء أبطال، ص ١٥

(٦٢) ساطع محلي، حمص أم الحجارة السود- ١٩٦٣، ص ٣٠

(٦٣) راجع مكانة حمص الدينية من هذا الكتاب

سمعوا الصلاة على النبي توالى
ثم استمر على الصلاة إمامهم
يآل حمص توقعوا من عارها
شاهت وجوهكم وجوها طالما
فتفرقوا شيعاً وقالوا لا لا
فتخزبوا ورمي الرجال رجالا
خزياً يحل عليكم ووبالا
رغمت معاطسها وساءت حالا^(٦٤)

هذه المواقف المتناقضة والمتضاربة لأهل حمص دفعت ياقوت إلى أن يقول "فقد التزموا الضلال أولاً وأخيراً، فليس لهم زمان كانوا فيه على صواب" واضح من كل ذلك أن حمص لم تكن منعزلة عما كان يجري حولها من تغيرات، سيما أن شعبها عرف بشدة بأسه وحماسته وسهولة تفاعله وتكيفه مع المتغيرات المختلفة، وكون مدينة حمص تتوسط سورية فقد كانت البوتقة التي انصهرت فيها حضارات وشعوب وأديان ومذاهب متعددة. لذلك نراهم مرة من الناصبيين (المتدينين بيبغض علي) ومرة أخرى من غلاة الشيعة يسيون السلف. فما هو سبب تعصبهم ودفاعهم عن المذهب "الدارج" إن صحت التسمية؟

(٦٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦)، ج ١٢، ص ١٤٣

صراع القيسية واليمانية

قبل الفتح الإسلامي كان هناك صراع بين القبائل القيسية واليمانية، وعندما جاء الإسلام خفت حدتها في عهد الخلفاء الراشدين، ومن باب المصادفة أو من باب الاختيار، يقول المؤرخ المعاصر وليد قنبار، وضع اليمانيون في حمص، والقيسيون في حماه، وكان بنو أمية عندما يريدون أن يشغلوا الناس عن عمل السياسة يثيرون النزعات بين حمص وحماه^(٦٥).

يقول المثل الشائع "أذل من قيسي في حمص. وذلك لأن حمص حسب ما يرد في مجمع الأمثال..١/٢٨٣" كلها لليمن ليس بها من قيس إلا بيت واحد^(٦٦) "فهم أذلاء لقلتهم"^(٦٧).

ومما ذكره اليعقوبي: "إن أهل حماة قوم من يمن والأغلب عليهم بهراء و تنوخ، وأهل حمص جميعاً يمن من طيء وكنده وحمير و كلب وغيرهم من البطون". ومن الأدلة الظاهرة على عراقية العرب في حمص، المثل المشهور "أذل من قيسي في حمص". وأصله كما يروي الرواة: أن رجلاً اسمه قيس من بني عدنان تخاصم مع رجل من بني قحطان، وطالت الخصومة بينهما حتى تحولت إلى حقد قاتل، وتعصب لكل منهما فريق من العرب، وأدى ذلك إلى حدوث فتنة شديدة بين الحجازيين واليمنيين سقط فيها كثير من الضحايا بين الفريقين. وتوارث حقد السلف وامتدت هذه العصبية إلى الحضر فحدث بينهم ما حدث بين البدو. وغلب اليمانية في حمص وذل بها القيسية وهجر أفرادها المدينة ولم يبق منهم فيها غير رجل واحد، فكان ذليلاً للغاية، حتى ضرب المثل في المذلة"^(٦٨).

(٦٥) جريدة الحياة، الأربعاء ٢٧-١٠-١٩٩٩

(٦٦) مجمع الأمثال، للميداني، ١/٢٨٣

(٦٧) كتاب جمهرة الأمثال تأليف الأديب أبي هلال العسكري ١/٤٧١

(٦٨) تاريخ حمص، ص ٢٧

وفي العهد الأموي كان التمرکز الأكبر للعصبية اليمينية في حمص. والعرش السوري للأمويين قام على عواتق اليمينية، وكان عداؤهم للقيسية (عرب الشمال) مستحکماً راسخ الأصول^(٦٩). ولكن أحد الكتاب الشيعة- أشرنا إليه سابقاً- يقدم رواية مختلفة نوعاً ما يقول فيها " الثابت أن التشيع في الشام يمانى. والمعروف أن سياسة معاوية الشامية، مالت إلى القيسيين في مقابل اليمانيين، حتى ثار الزبير فقلب عبد الملك الآية"^(٧٠).

وعندما انتقل مركز الخلافة إلى العراق في العهد العباسي وانتهى "ربيع دمشق" اشتد النزاع في سورية المسلمة، بين القيسية واليمينية الحزبين اللذين ظهرا بمختلف الأسماء. وكان ضلع العباسيين مع القيسية بوجه عام، فاعتمدوهم في شؤونهم. وبلغ النضال أشده في خلافة هارون الرشيد وفيه سُفكت دماء كثيرة في دمشق وحوارن والبقاع والأردن وحمص، ونشب القتال واستمر سنتين بلا هوادة وذلك - فيما روي - لأن قيسياً سرق بطيخة من بستان يماني. حتى أن الخليفة فكر بتجريد حملة تأديبية عليهم يقودها بنفسه، ثم عاد فكلف بها قائداً من البرامكة، فجرد هذا المقاتلين من كل سلاح حتى لم يدع رمحاً ولا فرساً^(٧١).

ويظهر أن الخلفاء العباسيين - كما يقول الرحالة والمؤرخ وصفي زكريا - الذين ابتعدوا واتخذوا بغداد عاصمتهم، لم يعنوا بشأن الشام، ولم يرسلوا إليها عمالاً ذوي كفاءة وحسن إدارة، فكان ذلك مدرجة لحدوث الفتن والحروب الأهلية، خاصة في حمص وجندها. وهذه الفتن كانت تارة من القيام لإعادة الملك إلى الأمويين، وتارة من تأجج نار العصبية بين القيسيين واليمانيين- وأهل حمص يمانيون نزاعون إلى الثورة- وتارة من الوثوب بأولئك العمال، ومجيء جيوش الخلفاء لتأديب المتوثبين، كما جرى في عهد الرشيد سنة ١٩٠هـ، والأمين سنة ١٩٤هـ، والمتوكل سنة ٢٤٠هـ و٢٤١هـ، وفي عهد المستعين مرة سنة ٢٤٨هـ، وثلاث مرات سنة ٢٥٠هـ، وفي كل فتنة أو

(٦٩) تاريخ سورية، ص ١٥١

(٧٠) شوقي المهاجر، مصدر سابق، ص ٢٠

(٧١) تاريخ سورية، ص ١٦٥

وثبة كان ينال حمص وأهلها من الحرق والخراب والتتكيل شيء غير يسير، ولما ضعف شأن الخلفاء العباسيين، ظهرت ملوك الطوائف في الأقطار البعيدة... وفي عام ٢٩٠هـ وصل زعيم القرامطة أبو شامة من دمشق إلى حمص، أطاعه أهلها، وفتحوا له أبوابها، خوفاً منه وخطبوا له على منابره، وبذلك نجت حمص من شر القرامطة، على خلاف ما جرى بحماة وسلمية والمعرة وغيرها^(٧٢)

بالإضافة لما سبق ونتيجة للمعارك التي خاضها أهل حمص ضد التتار سنة ٦٥٩ و٦٩٩، والخراب الذي أورثه تيمورلنك في عامة مدن الشام، والطاعون الهائل الذي حصد سكان حمص فيما حصدته من بقية مدن الشام سنة ٧٤٣هـ، وفتن الأعراب التي بدأت في تلك الحقبة، كل ذلك أضر بأرباض حمص وقراها الشرقية التي لا حياة لحمص بدونها، و حط شأنها فوق ما كان منحطاً من قبل، بفعل الثورات والروم (٣٥٨هـ - ٣٨١هـ - ٣٨٨هـ) والزلازل والصليبيين^(٧٣).

(٧٢) جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، مرجع سابق ص ٣٢١

(٧٣) مصدر سابق ٣٢٧

أهل حمص في نظر الجغرافيين والمؤرخين

المدن كالبشر، لها ناسوت قد يستمد عناصره من مناخها

نجاة قصاب حسن

بشكل عام يعود التأليف " في فضائل البلدان إلى القرن الثالث الهجري. وقد دفع إلى التأليف فيها عوامل كثيرة، أهمها يرجع إلى أسباب سياسية، أو عصبية"^(٧٤). ونحن إذ نستعرض ما قيل عن حمص سواء من مدح أو ذم، فإننا سنلاحظ أنها لم تخرج عن ذلك الإطار.

يرى ابن الفقيه الهمداني [٣١٨ هجري] في كتاب البلدان، أن "مدائن الجنة أربعة: حمص، ودمشق، وبيت جبرين، وضاфар اليمن".

و"الأصطخري (٩٥٠م) يقول إن شوارع حمص وأسواقها كلها تقريباً مرصوفة بالحجارة ويقول المقدسي إن نساءها ذوات جمال رائع وبشرة رقيقة"^(٧٥).

ويروي السعودي في تاريخه (٩٥٦م-٣٤٦هـ) أن عمر بن الخطاب لما فتح العراق والشام ومصر كتب إلى أحد حكماء ذلك العصر قائلاً: "إننا أناس عرب وقد فتح الله علينا البلاد، ونريد أن نتبوأ الأرض ونسكن البلاد والأمصار فصف لي المدن وأهويتها ومساكنها وما تؤثره التربة والأهوية في سكانها. فكتب له الحكيم عندما أتى على ذكر الشام ما يلي "أما الشام فسُحِبَ وآكام، وريح وغمام، وغداق ورُكَّام، ترطب الأجسام وتبلد الأحلام وتصفى الألوان، لاسيما أرض حمص فإنها تحسن الجسم وتُصفى اللون وتبلد الفهم وتترجح غوره وتجفي الطبع وتذهب بماء القريحة، وتتصب العقول"^(٧٦).

(٧٤) فضائل الأندلس وأهلها، حققه صلاح الدين المنجد، ص ١

(٧٥) قصة الحضارة، ج ١٣، ص ١٥٧

(٧٦) مروج الذهب ومعادن الجواهر، السعودي، المجلد الثاني، ص ٦٦-٦٧

وفي كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، يشرح لنا المقدسي (٣٣٥-٣٩٠هـ) ما عاناه من جهد لكي يضع هذا الكتاب الذي قسمه إلى ثلاثة أقسام أولها "ما عينه" إذ لم يبق إقليم إلا وقد دخله وأقل سبب إلا عرفه، والثاني ما "سمعه من ثقاة أهل العلم والوزراء" والثالث "ما وجدته في الكتب المصنفة". وذلك كله حتى يعلم الناظر في كتابه أنه "لم يصنفه جزافاً ولا رتبته مجازاً ويميزه من غيره فكم بين من قاسى هذه الأسباب وبين من صنف كتابه في الرفاهية ووضع على السماع ولقد ذهب لي في هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم". ذكرنا تلك المعاناة لأن المؤلف توصل بعد كل ذلك إلى حكمة يعطينا إياها قائلاً: "إعلم أن كل بلد فيه صاد فأهله حمق إلا البصرة، فإن اجتمعت صادان مثل المصيصة وصرصر فنعوذ بالله" وهو عندما يذكر خصائص الأقاليم يقول: "... لا أعصى من أهل دمشق ولا أوطأ من أهل مصر ولا أبله من أهل البحرين ولا أحقق من أهل حمص..."

ويصف لنا حمص على النحو التالي: "حمص ليس بالشام بلد أكبر منها وفيها قلعة متعالية عن البلد ترى من خارج أكثر شربهم من ماء المطر ولهم أيضاً نهر. ولما فتحها المسلمون عمدوا إلى الكنيسة فجعلوا نصفها جامعاً عنده بالسوق قبة على رأسها شبه رجل من نحاس واقف على سمكة تديرها الأرياح الأربع وفيه أقاويل لا تصح والبلد شديد الاختلال متداع إلى الخراب والقوم حمقى" (٧٨)

وابن جوقل لعاش في القرن العاشر الميلادي في كتابه "صورة الأرض" يقول إن: "حمص مدينة مستواه، وخصبة أيضاً، وكانت أيام عمارتها صحيحة الهواء، من أصح بلدان الإسلام تربة، وكان في أهلها خبال ويسار، فدخلها الروم غير دفعة فأحالوها..".

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي، نقرأ للشاعر والجغرافي اليوناني أفينوس، وصفاً لروائع أذهلته عند زيارته حمص، يقول: "من الجهة التي تخرج نيران النهار من مهدها، ترفع حمص رأسها المجلل بالضياء. أما جوانبها فتمتد بعيداً على

(٧٨) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، محمد بن أحمد المقدسي، ص ١٤٣

الأرض في كل اتجاه، بينما ترتفع أبنيتها حتى تلامس عنان السماء. ويبيد سكان المدينة ذكائهم بممارسة كل أنواع الدراسات الجادة التي يندفع إليها شيوخها بحماسة أكبر... وعلى مدى غير بعيد تقوم مياه العاصي اللازوردية اللون بشق الأرض بتيارها وتتدفق معرودة حتى تلامس أرياف أفاميا قبل أن تصل إلى مدينة أنطاكية في نهاية المطاف"^(٧٥).

أما الرحالة ابن جبیر(٥٤٠، ت ٦١٤هـ - ٢١٧م) فيناقض نفسه عندما يصف المدينة، فهو يقول: "حمص حرسها الله تعالى فسيحة الأسحة مستطيلة المساحة نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة موضوعة في بسيط من الأرض عريض مداه لا يخترقه النسيم بمسراه يكاد البصر يقف دون منتهاه أفيح أغبر لا ماء ولا شجر ولا ظل ولا ثمر فهي تشتكي ظمائها وتسقى على البعد ماءها فيجلب لها من نهرها العاصي وهي منه بنحو مسافة الميل وعليه طرة بساتين تجتلي العين خضرتها... وأحمد خلال هذه البلدة هواؤها الرطب، ونسيمها الميمون تخفيفه وتجسيمه، فكأن الهواء النجدي في الصحة شقيقه وقسيمه.. "ويضيف" سألنا أحد الأشياخ بهذه البلدة: هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات؟ فقال وقد أنكر ذلك: حمص كلها مارستان! وكفالك شهادة أهلها فيها!

في كتابه آثار البلاد وأخبار العباد يقول القزويني {١٢٠٣-١٢٨٣م} - ص ١٨٥ - : حمص مدينة بأرض الشام، حصينة أصح بلاد الشام هواء وتربة، وهي كثيرة المياه والأشجار ولا يكاد يلدغ بها عقرب وتسهي حية... وأهلها موصوفون بالجمال المفرط والبلاهة، ويضيف القزويني "أما حكومة قاضي حمص فمشهورة، ذكر أنه تحاكم إليه رجل وامرأة، فقالت المرأة هذا الرجل أجنبي مني وقد قبلني، فقال القاضي: قومي إليه وقبليه كما قبلك، فقالت: عفوت عنه! فقال لها: مري راشدة" ويضيف إن أشد الناس على علي، رضي الله عنه، بصفين مع معاوية، كان أهل حمص وأكثرهم تحريضاً عليه وجداً في حربه، فلما انقضت تلك الحروب ومضى

(٧٥) إمبراطورات سوريات، جان بابليون، ترجمة يوسف شلب الشام، ص ٢٤

ذلك الزمن صاروا من غلاة الشيعة، حتى أن في أهلها كثيراً ممن رأى مذهب النصرانية، وأصلهم الإمامية الذين يسبون السلف."

ويلتقي **ياقوت الحموي**/نسبة إلى حماة ٥٦٧هـ، ت٦٢٦-١٢٢٨م/مع القزويني في ذلك، ويضيف عليه: فقد التزموا الضلال أولاً وأخيراً، فليس لهم زمان كانوا فيه على صواب" ويقول ياقوت أيضاً: "ومن عجيب ما تأملته من أمر حمص، فساد هواؤها وتربتها، الذين يفسدان العقل، حتى يضرب بحماقتهم المثل".

يقول شيخ الربة **شمس الدين الصوفي** (٦٥٤هـ-١٢٥٦م)، (٧٢٧هـ-١٣٢٧م)، صاحب كتاب "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" "... حمص مدينة قديمة... ماؤها وهواؤها صحيح. ومن حسن بناء حمص أنه لا يوجد فيها دار إلا وتحتها في الأرض مغارة أو مغارتان وماء ينبع للشرب. وهي مدينة فوق مدينة. وأهل مدينة حمص يوصف عامتهم بقلّة العقل، ويحكى عن سوقتهم حكايات تشبه الخرافات" (٧٩).

أما **أبو الفداء** المتوفى ٧٣٢هـ /صاحب حماه، وهي مسمّاة باسمه/ فيقول في كتابه تقويم البلدان: "حمص مدينة أولية، وهي إحدى قواعد الشام، وهي ذات بساتين شربها من نهر العاصي" ويضيف: "قال العريزي: مدينة حمص أصح بلدان الشام هواء.."

ويصف الرحالة **ابن بطوطة** ولد ٧٠٣هـ، ١٣٠٤م رحلته لحمص قائلاً: ثم سافرت إلى مدينة حمص وهي مدينة مليحة أرجاؤها مؤنقة، وأشجارها مورقة، وأنهارها متدفقة، وأسواقها فسيحة الشوارع...، وأهل حمص عرب لهم فضلٌ وكرم.."

أما **الشريف الإدريسي** فيقول في كتابه/ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق/ "حمص مدينة حسنة في مستو من الأرض، وهي عامرة بالناس والمسافرون يقصدونها.. ومسرات أهلها دائمة وخصبهم رغد ومعايشهم رفيقة، وفي نساءها جمال وحسن بشرة.. وهواؤها، أعدل هواء يكون بمدن الشام".

(٧٩) تاريخ حمص، عيسى أسعد، ص ٢٦١

وفي كتاب منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان لمحمد ابن الخانجي نقرأ: حمص "... مدينة جميلة قديمة واقعة في مستوى من الأرض كانت سابقاً من أكبر البلدان وأحسنها وهي خصبة الأراضي كثيرة المزارع والبساتين يسقيها نهر العاصي وهي جميلة الهواء بها كثير من الجمال المفرط والفطنة وإن كان ظاهر أهلها يوهم البلاهة وصناعتها رائجة ولأهلها براعة في الأنسجة القطنية والحريرية"^(٨٠).

ونجد في رأي لاحق، التأثير برأي أغلب السابقين، ففي كتاب أخبار الدول في آثار الأول، لأحمد بن يوسف القرماني (توفي ١٠١٩هـ، ١٦١٠م) جاء أن حمص مدينة حسنة بالشام في مستوى من الأرض، أصح بلاد الشام هواء وترية وهي كثيرة المياه والأشجار، ولا يكاد يلدغ بها عقرب... وأهلها موصوفون بالبلاهة^(٨١)، وفي موقع آخر من الكتاب أن "أهلها في خصب وأرغد عيش وفي نسائها جمال فايق"^(٨٢).

أما **الدمشقي** (١٨٨٨م): فيرى "مدينة حمص، جيدة التربة، معتدلة الهواء، متسعة الأرجاء، تحيط بها قرى كثيرة، ولكن أكثرها خراب نظراً لاعتداء عرب البادية عليها. وأهالي المدينة نحو عشرين ألف نسمة تلتهم نصارى والباقي من المسلمين. ولم أرَ فيها نصرانياً غير مولع بالسكر. وكثيرون منهم يكتبون خطأً جميلاً. وقد خرج منها أفراد مشهورون بالعقل والذكاء حال كون عامتهم تغلب عليهم السذاجة"^(٨٣).

و من القرن الماضي وتحديدًا عام ١٩٦٣ نقرأ في استطلاع أجرته مجلة العربي عن حمص، أن: "شوارع حمص" تختلف عن شوارع أي بلد آخر... وسياراتها أكثر وضوءاً وجلبية من أي سيارات أخرى.. حتى أرصفتها لا يمكن السير عليها لأنها مغطاة ببضائع الباعة. وتحت الأشجار في شارع السرايا، تجري المجادلات

(٨٠) ساطع محلي، مصدر سابق، ١٩٦٣، ص ٢٦-٢٧

(٨١) أخبار الدول في آثار الأول، لأحمد بن يوسف القرماني، ص ٣٥٣

(٨٢) مصدر سابق، ص ٣٠٥

(٨٣) تاريخ حمص عيسى أسعد ص ٣٨٦

والاتفاقات، والمفاوضات، وبين أهل البادية، وأهل حمص الأذكياء، الذين يعتبرون من أمهر الوسطاء في عالم التجارة... وتاريخ مدينتهم يشهد بأنها كانت "همزة وصل" بين العالمين القديم والحديث... فحمص تشترك مع حلب ودمشق في السيطرة على حركة التجارة والمرور بين الشرق والغرب، والفرس والروم، ووادي النيل، ووادي دجلة، حتى أن هذا الطريق الأخير، الذي كان يربط بين أقدم حضارتين، يعتبر في نفس الوقت أقدم طريق تجاري عرفه العالم^(٨٤)..

أما محمد ناجي العطري محافظ حمص خلال عقد التسعين من القرن الماضي الذي تولى منصب رئيس الوزراء فيما بعد فيقول إن المحطة "التي أعتز فيها هي محطة حمص، حمص كانت مدرسة بالنسبة إلي، أنا تعلمت من حمص العمل الإداري، وتوجد نصيحة دائماً أقولها لا توجد حاجة لتبعث مسؤول لدراسة الأمور الإدارية وكي تسلمهم موقع مسؤولية ابعثهم إلى حمص..

خصوصية حمص تأتي حسب ما يرى العطري من أنها مجتمع متميز عن غيره من المجتمعات (ذكي - متحرر - متطور) هناك تكافل اقتصادي لا نراه في غيره من المجتمعات، يقول: أنا أحببت المجتمع الحمصي ويمكن هم بادلوني نفس الشعور فكانت العلاقة بيني كمسؤول وبينهم كمجتمع - بدءاً من البادية السورية وحتى الحدود اللبنانية - عميقة. يضيف فترة خدمتي في حمص كان فيها انطلاقة، ويكشف لنا أن أداءه "الذي حدث في حمص هو السبب الرئيسي في مجيئي إلى دمشق، فوجئت وأنا أحد الناس الذين فوجئوا كنت أتوقع مجيئي من حمص إلى محافظة أخرى، ثم في حمص يوم التغيير الوزاري فوجئت وأسميها نقلة نوعية بان أنتقل من محافظ إلى نائب رئيس مجلس وزراء دون المرور في مرحلة وسطية^(٨٥)

هكذا رأوا حمص، منهم من زارها ومنهم من نقل ما رواه غيره، منهم من وصف أهل حمص بالذكاء وأغلبهم وصفهم بالبلاهة واليسار. في المحصلة معروف أن الرحالة لا يختار كما يفعل سائحو اليوم الوقت الذي يصل فيه إلى منطقة ما،

(٨٤) العربي، العدد الثاني والخمسون، مارس، ١٩٦٣

(٨٥) محمد ناجي العطري، صحيفة تشرين، ٩ تشرين الأول ٢٠٠٥

وبالتالي لا يستطيع أن يتحكم بطقسها ولا بطبيعتها... أما أن تكون تربة حمص والهواء الذي يتنفسه أهلها مبرراً لوسمهم بالحمق والبلاهة، فأمر يمكن للفصول السابقة واللاحقة أسبابه.

طبيعيٌّ لمن يكوّن رأي عن أهل منطقة ما أن تؤثر معاملة أهلها في تكوين الانطباع عنهم. مثلاً تقول بعض الروايات إنه "حين جاء المتنبّي إلى مصر حمل عليه سيبويه المصري (أول نكتي شهير في مصر، عاش في عهد كافور الإخشيدي) حملة شعواء، وكان ذلك من الأسباب التي نضرت المتنبّي من أهل مصر وجعلته يهجوهم بشعره الرائع"^(٨٥).

بشكل عام فإن إثارة الإشاعات حول مدينة مهمة، يكون إما بدافع المداعبة أو الإقلال من أهميتها أو تفريراً لعصبية دينية أو سياسية، فإذا ناقشنا رأي ياقوت الحموي مثلاً وجدنا موقفه - إذا استثنينا العصبية المحلية بين الحموية (القيسية) وأهل حمص (اليمانية) وتشيعه - نفهم أن اليوم الذي وصل فيه ياقوت حمص كان فصل شتاء وشتاء حمص غزير المطر كثير الزواجع والعواصف الثلجية وما تجره من برد وصقيع^(٨٦)، هذا بالإضافة إلى الأثر المديد للرياح الشهيرة التي تهب على المدينة من الغرب وهذه الرياح هي التي جعلت أشجار حمص تميل وتحنى^(٨٧). ولكن ذلك لا يعني إلا أنه استغل مناخ المدينة ليعكس موقفه من أهل حمص.

ونحن لاحظنا اختلاف آراء الرحالة سابقاً. وتأثيرهم بمن أتى بعدهم. وهناك قول ظريف لأحد أبناء حمص: إن تيمورلنك لم يصب حمص بمثل ما أصابها به ياقوت الحموي! هذا الرجل الذي يدعي أنه حموي بينما هو رومي لهماً ودماً، وقد انتحل صفة الحمويين ليشفي غليله من الحمصيين والحمويين في آن واحد: يشنع على حمص، ويعيش على حساب حماة بالصحة والعافية^(٨٨)...

(٨٥) علي مرّوة، موسوعة الأدب الضاحك، ج٢، ص١١-١٢

(٨٦) حمص دراسة وثائقية نعيم الزهراوي ومحمود السباعي، ص٢٠١

(٨٧) حمص... رحابة المكان، مرافق الزمان، العربي- العدد ٤٥٦- تشرين الثاني ١٩٩٦

(٨٨) العربي، العدد الثاني والخمسون، مارس، ١٩٦٣

وكونه لم يكن هناك وسائل متطورة للتأكد من رأي الرحالة فإن رأيه كان يتداول من خلال كتبه حتى يأتي رحالة آخر يستفيد من رأيه لينفيه أو يؤكد أو يعلق و يضيف عليه كما لاحظنا. ولكن خطورة الموضوع تكمن في أن المعلومة الأولى تبقى الأرسخ في الذهن كما أن الرواية تتعرض لإضافات عندما تخضع " للمعالجة الشعبية " فهي تتضخم وتؤول ... إلخ، وبالتالي ليس من المستغرب أن يقول اليوم شخص لحمصي وهو على يقين في أغلب الأوقات هل صحيح أن أهل حمص مجاديب؟.

هل يمكن العثور في كتب التاريخ عن وصف موضوعي لمدينة حمص خارج إطار التحيزات والتعصب؟

الأمر ليس مستحيلاً... ولكن في مكان يبعد عن مدينة حمص آلاف الكيلومترات، وتحديداً إلى بلاد الأندلس، لننظر ما كتبه علمائها فيما يخص مدينة اشبيلية "حمص الأندلس":

مدينة عامرة على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة، وأهلها ذوو أموال عظيمة و تجارات رابحة، وهي من أحسن مدن الدنيا ويضرب بأهلها المثل في الخلاعة وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة ويعينهم على ذلك وادبها الفرج ونادبها البهيج.

وقال بعضهم في اشبيلية إنها قاعدة بلاد الأندلس وحاضرتها ومدينة الأدب واللهم والطرب وفيها كثير من المتفرجات والمتزهات^(٨٩). من محاسنها اعتدال الهواء وحسن المباني، ووادبها لا يخلو من مسرة فجميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر لا ناه عن ذلك ولا منتقد ما لم يؤد السكر إلى شر وعريضة وقد رام من وليها من الولاة المظهرين للدين قطع ذلك فلم يستطيعوا إزالته. وأهلها أخف الناس أرواحاً وأطبعهم نوادر وأحملهم لمزاح بأقبح ما يكون من السب، قد مرنوا على ذلك فصار لهم ديدنا حتى صار عندهم من لا يبتذل فيه ولا يتلاعن ممقوتا ثقيلًا، ولكن ذلك

(٨٩) أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (٩٩٢-١٠٤١هـ)، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب

وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج١، ١٥٧ وما بعدها

لا يعني أنها مدينة مستهترّة، فعلماءها في كل صنف رفيع أو وضعي جدا أو هزلا فأكثر من أن يعدوا وأشهر من أن يذكرها^(٩٠).

لما تملك بنو أمية الأندلس كما يقول ياقوت بعد انتقالهم من الشام أيام هربهم من بني العباس سموها عدة مواضع بالأندلس بأسماء مدن الشام، فسميت "غرناطة بدمشق الأندلس لأنها أشبه شيء بها"^(٩١) ونزلها أهل دمشق، ونزل أهل حمص إشبيلية، فسميت حمص الأندلس لأنها أشبه شيء بها، كما نستدل من تسمية غرناطة، هكذا هي حمص الشام، خارج إطار التحيزات والعصبية أتم تشبه إشبيلية بحمص كيف لا، وحمص الأندلسية "مدينة الأدب واللهو والطرب" أما حمص الشامية فهي "كعبة" اللهو والأدب والطرب، كما سنرى بعد قليل.

وهكذا نجد أن وصف حمص الأندلسية، يتطابق مع وصف حمص الشام، ولكن أهلها يوصفون بأنهم أخف الناس أرواحا وأطبعهم نواذر وأحملهم للمزاح، هذه الصفة حوّلت في حمص الشام لبلاهة وحمق "بالمعنى المادي" للكلمة.

ألا يبين ذلك أن ما وصف به أهل حمص لم يكن إلا كلمات أقحمت في كتب التاريخ والأدب والجغرافيا لحد يبدو فيه التناقض ظاهراً في أقوال من كان ناقماً على أهل هذه المدينة. مدفوعاً بتعصبات طائفية و سياسية جعلتا حتى اليوم نعيش ماضيها حاضراً أبدياً.

(٩٠) فضائل الأندلس وأهلها، لابن حزم (٤٥٦هـ)، وابن سعد، والشقندي (٦٢٩هـ) نشرها، ص ٥١، ٥٢، ٥٠.

(٩١) نصح الطبيب، مرجع سابق، ١/١٧٣

الأحمق الحمصي في الأدب العربي

من قال لأخيه يا أحمق استوجب نار جهنم (الأنجيل، متى ٢٢: ٥)

قمنا فيما سبق بعملية" التداعي الحر" لنعرف طفولة النكتة الحمصية، ورأينا كيف برزت عوامل الكبت التاريخي (السياسي والديني) وفعلت فعلها بشكل ملحوظ في طمس الأسباب الكامنة خلف" شخصية الأحمق الحمصي". ولكن هل تلك الأسباب كافية لأن يستمر التندر على أهل حمص أكثر من ٤٠٠ سنة؟

من العوامل التي أدت إلى استمرار التندر على حمق أهل حمص مساندة الأدب للتاريخ. إذ حفظ لنا هو الآخر الكثير من الحوادث عن "الأحمق" الحمصي. و" لكثرة ما ضحك المجتمع العربي من المغفلين و الحمقى (بشكل عام) قام بعض أئمة الأدب والفكر، بجمع أخبارهم ونوادرهم"^(٩٢)، فكانت فرصة لإيراد الأحمق الحمصي بين صفحات كتبهم حتى أن ابن الجوزي صنف أهل حمص بين "الحمقى والمغفلين على الإطلاق" (المغفل: من لا فطنة له).

لابد أن نعرف أولاً، كيف نظرت العرب إلى الأحمق؟

" قال ابن الأعرابي: الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت فكأنه كاسد العقل والرأي فلا يشاور ولا يلتفت إليه في أمر من الأمور، والحمق غريزة لا تنفع فيها الحيلة وهو داء دواؤه الموت، قال الشاعر:

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها

والحمق مذموم، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):

"الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى إذ حرمه أعز الأشياء عليه وهو العقل...
والسكوت عند الأحمق جوابه".

(٩٢) أدبنا الضاحك، ص ٩٣

نظر أحد الحكماء إلى أحمق يجلس على حجر فقال: حجر على حجره.. ويقال للأبله السليم القلب هو من بقر الجنة لا ينطح ولا يرمح والأحمق المؤذي هو من بقر سقر (جهنم)^(٩٣) يقول الإمام الأوازعي (ت ١٥٧ هـ): بلغني أنه قيل لعيسى بن مريم عليه السلام: يا روح الله إنك تحيي الموتى؟ قال: نعم بإذن الله، قيل وتبرئ الأكمة (المولود أعمى)؟ قال: نعم بإذن الله، قيل: فما دواء الحمق؟ قال: هذا الذي أعياني (أعجزني)^(٩٤). هذا بعض مما رواه الأبشيهي عن الحمق، وهو يستند في روايته إلى ابن الجوزي، أما في الرواية المسيحية فقد جعل السيد المسيح أقسى عقوبة بين النعوت لمن يسم أخيه بالأحمق متى ٥: ٢٢ "أما أنا فأقول لكم ان كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم. ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع. ومن قال يا احمق يكون مستوجب نار جهنم.

يروى المسعودي في تاريخه: حادثة حصلت بين هشام بن عبد الملك ورجل من أهل حمص^(٩٥)، جاء فيها:

أن هشام بن عبد الملك عرض يوماً الجنود بحمص، فمر به رجل من أهل حمص وهو على فرس نفور، فقال له هشام: ما حملك على أن تربط فرساً نفوراً؟ فقال الحمصي: لا والرحمن يا أمير المؤمنين، ما هو بنفور، ولكنه أبصر حولتك فظن أنها عين غزوان البيطار، فقال له هشام: تنح، فعليك وعلى فرسك لعنة الله. وكان غزوان البيطار نصرانياً ببلاد حمص كأنه هشام في حولته وكشفته^(٩٦).

(٩٣) المستطرف، مرجع سابق، ٤٣/١-٤٤

(٩٤) ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، ص ١٧

(٩٥) نقلها ابن الجوزي مختصرة.

(٩٦) مروج الذهب ومعادن الجواهر، المسعودي، المجلد الثالث، ص ١٩٧

ابن الجوزي و أهل حمص

أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، ولد وتوفي في بغداد (٥١٠-٥٩٧هـ). اشتهر بالأجوبة اللطيفة والمسكّنة فضلاً عن البديهة. منها أنه وقع نزاع بين السنة والشيعة ببغداد في المفاضلة بين أبي بكر وعلي، فرضي الكل بما يجيب به الشيخ ابن الجوزي، فسألوه وهو في مجلس وعظه عن ذلك فقال: أفضلهما بعد رسول الله من كانت ابنته تحته، ثم نزل في الحال وذهب لئلا يعاودوه في ذلك. فقال أهل السنة هو أبو بكر لأن ابنته عائشة كانت تحت النبي، وقالت الشيعة هو علي لأن فاطمة بنت النبي (ص) كانت تحته^(٩٧) ونذكر أن روايات ابن الجوزي عن الأحمق الحمصي، كانت مادة رئيسية في اقتباسات الكتاب والأدباء في الماضي والحاضر، يتناقلونها في الكثير من الأحيان على أساس أنها طرائف تبعث على الضحك، دون معرفة الأسباب الكامنة خلفها.

في كتابه أخبار الحمقى والمغفلين وتحت عنوان " في ذكر المغفلين من القضاة" يقول ابن الجوزي^(٩٨):

قال أبو الفضل الربيعي: سألت المأمون رجلاً من أهل حمص عن قضائهم قال: يا أمير المؤمنين، إن قاضينا لا يفهم وإذا فهم وهم. قال: ويحك كيف هذا؟ قال: قدم عليه رجل رجلاً فادعى عليه أربعة وعشرين درهماً، فأقر له، فقال أعطه، قال: أصلح الله القاضي، إن لي حماراً اكتسب عليه كل يوم أربعة دراهم، أنفق على الحمار درهماً وعلي درهماً وأدفع له درهمين، حتى إذا اجتمع ماله غاب عني فلم أراه فأنفقتها، وما أعرف وجهاً (وسيلة) إلا أن يحبسني القاضي اثنا عشر يوماً حتى أجمع له إياها، فحبس صاحب الحق حتى جمع ماله، فضحك المأمون وعزله".

(٩٧) موسوعة الأدب الضاحك، مرجع سابق، ج٦، ص٥٩

(٩٨) أخبار الحمقى والمغفلين، ابن الجوزي، ص٩٦-٩٧. أوردها الأستاذ عبد الغني العطري، في كتابه

أدبنا الضاحك، ص٢١٨

وتحت عنوان في ذكر المغفلين من المؤذنين نقرأ:

- " كان سعيد بن سنان المهدي مؤذناً بجامع حمص؟ وكان شيخاً صالحاً يسحر الناس في رمضان فيقول في تسحيده: استحثوا قديراتكم، وعجلوا قبل أن أأذن فيسخم الله وجوهكم وتحردوا" (٩٩).

ونطالع في الباب الرابع والعشرون، وهو: في ذكر المغفلين على الإطلاق:

- قال أبو العيناء: كنت بجمص فمات لجار لي بنت، فقيل له: كم لها؟ قال: ما أدري، ولكنها ولدت أيام البراغيث (١٠٠).
- عن معمر أنه قال: دخلت مسجد حمص فإذا أنا بقوم لهم رواد، فظننت فيهم الخير فجلست إليهم، فإذا هم ينتقصون علي بن أبي طالب ويقعون فيه، فقامت من عندهم، فإذا شيخ يصلي ظننت فيه الخير فجلست إليه، فلما أحس بي وسلم قلت: يا عبد الله ما ترى هؤلاء القوم ينتقصون علياً ويشتمونه، وجعلت أحدثه بمناقبه وأنه زوج بنت رسول الله وأبو الحسين وابن عم الرسول. فقال: يا عبد الله، ما لقي الناس من الناس، ولو أن أحد نجا من الناس، لنجا منهم أبو محمد رحمه الله، هوذا يشتم وحده، قلت ومن أبو محمد؟ قال الحجاج بن يوسف وجعل يبكي، فقامت عنه وقلت: لا يحل لي أن أبيت في هذه البلدة، فخرجت من يومي (١٠١).

و يتابع بن الجوزي سرد أخبار المغفل الحمصي:

- حكى أن جماعة من أهل حمص تناكوا في حديث الأعضاء ومنافعها، فقالوا: الأنف للشم، والضم للأكل، واللسان للكلام، فما فائدة الأذنين؟ فلم يتوجه لهم في ذلك شيء، فأجمعوا على قصد القضاة ليسألوه، فمضوا، فوجدوه في شغل، فجلسوا على

(٩٩) ابن الجوزي، مصدر سابق، ص ١٠٥

(١٠٠) ابن الجوزي، مصدر سابق، ص ١٦٥. أوردها الأستاذ عبد الغني العطري، في كتابه أدبنا

الضاحك، ص ٩٤

(١٠١) ابن الجوزي، مصدر سابق، ص ١٣٤. نقل هذه الحادثة علي مروة في موسوعته عن الأدب

الضاحك الجزء السادس، طرائف الأذكياء والمغفلين ص ٦٤-٦٥.

باب داره وإذ هناك خياط فتل خيوطاً و وضعها على أذنه. فقالوا: قد أتانا بما جئنا نسال القاضي عنه، إنما خلقت للخيوط، وانصرفوا مسرورين بما استفادوا"^(١٠٢).

• عرض هشام بن عبد الملك الجند فأتاه رجل حمصي بقرس، كلما قدمه نفر. فقال هشام: ما هذا؟ قال الحمصي: يا سيدي هو جيد، لكنه شبهك ببيطار كان يعالجه فنفر.

• اجتاز أهل حمص بشيخ لهم، لم يكن فيهم أعقل منه ولا أكمل مع ابنين له معروفين عندهم بالعقل والكمال، فأوفدهم إلى الرشيد لمظلمة كانت بهم، فلما وردوا الباب وأذن لهم دخل الشيخ فقال: السلام عليك يا أبا موسى، فعلم انه أحقق وأمره بالجلوس، ثم قال: أحسبك قد طلبت العلم وجالست العلماء؟ قال: نعم يا أبا موسى. قال ومن جالست من العلماء؟ قال أبي، قال: وما كان يقول في عذاب القبر؟ قال: كان يكرهه، فضحك الرشيد ومن حضر. ثم قال: يا شيخ من حضر البحار فيما سمعت؟ فسكت الشيخ، فقال أحد ولديه: قد حضرها موسى حين طرق له. قال: فأين طينها؟ فقال الولد الثاني: الجبال، ففرح الشيخ بحسن جواب ولديه، وقال: والله ما علمتهما، ما هو إلا إلهام من الله تعالى وله الحمد.

• وفد على الرشيد ثلاثة من حمص، فدخل أحدهم فرأى غلاماً على رأسه فظنه جارية، فقال: السلام عليك يا أبا الجارية، فصفع وأخرج. فدخل الثاني فقال: السلام عليك يا أبا الغلام، فصفع وأخرج. فدخل الثالث فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال له: كيف صحبت هذين الأحمقين؟ قال: يا أمير المؤمنين لا تتعجب منهم فإنهم لما رأوك بهذا الزي ورأوا لحيتك طويلة قدروا أنك أبو فلان، فقال الرشيد: أخرجوه، قبح الله بلدة هؤلاء خيارهم"^(١٠٣).

(١٠٢) ابن الجوزي، مصدر سابق، ص ١٧٢-١٧٣

(١٠٣) ابن الجوزي، مصدر سابق، ص ١٧٢-١٧٣. أوردها الأستاذ عبد الغني العطري، في كتابه أدبنا

الضاحك، ص ٩٥

وفي كتابه الأذكياء يروي ابن الجوزي^(١٠٤):

- "خرج بعض حدّاق المكيين/المحتالين من المتسولين/ من بغداد إلى حمص ومعه امرأته، فلما حصل بها قال: إن هذا بلد حماقة، وأريد أن أعمل حيلة فتساعديني" (باختصار) أمرها أن لا تمر به إلا بعد سنة، وخلالها اعتزل في الجامع ولم يكلم أحداً طيلة هذه المدة، فعظم شأنه عند أهل حمص، وزاد مجلته، حتى أنهم كانوا يتمسحون به واعتبروه أحد "الأبدال"، وكان طلب من زوجته قائلاً: "إذا كان يوم جمعة حين يصلي الناس، فتعالني فاعلقتي بي ولطمني وجهي وقولي: يا عدو الله يا فاسق، قتلت ابني ببغداد، وهربت إلى هنا تتعبد، وعبادتك مضروب بها وجهك، ولا تفارقيني، واطهري أنك تريدين قتلي بابنك، فإن الناس سيجتمعون إليك، وأمنعهم من أذيتك، وأعترف بأني قتلته وتبت، وجئت إلى هنا أتعبد، والتوبة، والندم، على ما كان مني، فاطلبي قودي/القصاص مني/ بإقرارني، وحملي إلى السلطان، فيعرضون عليك الدية فلا تقبليها، حتى يبذلوا لك عشرين ألفاً أو ما استوى لك بحسب ما ترين من زيادتهم، وحرصهم، فإذا تناهت أعطيتهم في افتدائي إلى حد يقع لك أنهم لا يزيدون بعده شيئاً فأقبلي الفداء منهم، واجمعي المال وخذيته واخرجني من يومك إلى بغداد، ولا تقيمي في البلد، فإني سأهرب وأتبعك". وكان ما خططا وعندما طلبت المرأة قتل الرجل دافع عنه أهل حمص قائلين: "يا عدو الله هذا من الأبدال، هذا قوام العالم، هذا قطب الوقت"، لكن المرأة أصرت على أخذ حقها وقتل الرجل" فقال الشيخ: يا قوم لقد ضللتكم عن مداواة هذه المحنة، وحراسة بلدكم بهذا العبد الصالح، فارتفقوا بالمرأة وأسألوها قبول الدية نجمعها من أموالنا" فجمع لها أهل حمص مائة ألف درهم، وأبى المرأة إلا "قتل القاتل" فأقبل الناس يرمون ثيابهم وأرديتهم وخواتيمهم والنساء حللهن فأخذت المرأة ذلك وأبرأته من الدم" وغادرت حمص، ثم هرب "المحتال" في بعض الليالي وطلب فلم يوجد ولا عرف له خبر. حتى انكشف أنه كان حيلة، بعد مدة طويلة".

(١٠٤) ابن الجوزي الأذكياء، ص ١٢٦-١٢٧-١٢٨

إذا نزعنا من بداية القصة عبارة هذا بلد حماقة، كيف يمكن أن ننظر إلى موقف أهل حمص؟

ميز بن الجوزي بين الأحمق و المجنون، "فالحمق والتغفيل هو الغلط في الوسيلة والطريق إلى المطلوب مع صحة المقصود، فمن ذلك أن طائراً طار من أمير فأمر أن يفلق باب المدينة فمقصود الرجل حفظ الطائر. أما الجنون، فإنه عبارة عن الخلل في الوسيلة والمقصود جميعاً"^(١٠٥). وبعد بن الجوزي بمائة عام بدأ الناس يتلقون أخبار الحمصي مع توسيع دائرة حمقه إلى الجنون، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن لتصنيع الشخصية المسلية مزاجية خاصة تختلف من شخص لأخر. خاصة وأن الناس أخذت تتلقى هذه الأخبار دون وضعها في سياقها التاريخي

(١٠٥) أخبار الحمقى والمغفلين، مرجع سابق، ص ١٥

مصادر أخرى

ابن العبري (٦٢٥-٦٨٥هـ)

يروى العلامة بن العبري في كتابه نوادر مضحكة^(١٠٦) المكتوب بالسريانية ثلاث نوادر عن المجنون الحمصي تحت عنوان نوادر المختلين عقلياً أو المجانين ص ١٢٤:

- سئل رجل مجنون (ديُونُو)^(١٠٧): احسب لنا عدد المجانين في مدينة حمص، أجابهم: لا أستطيع عددهم لكثرتهم، لكن إذا أردتم أستطيع أن أعد لكم العاقلين فيها.
- مجنون من مدينة حمص، شرس يضرب الناس كثيراً. فقام إليه رجل بيده عصا وأخذ يضربه بقسوة. فأنبه الناس وقالوا له: اتركه فهو مجنون لا يعرف ما يصنع، فقال لهم المجنون: أرجوكم أفهموه، كرمي لله، فهو لا يعرف أنني مجنون.
- شوهد رجل في مدينة حمص "يتزوج" امرأته في الحديقة العامة، فأنبه المارون على فعلته قائلين: ألا تخجل من عملك هذا أمام الناس، أجابهم: إذا كتب أحدكم مقال في جريدة، يريه للجميع دون خجل، أما أنا فأكتب (أصنع) إنساناً كاملاً. فانفض الناس من حوله.

نلاحظ أن المجنون في هذه النوادر متغابي أو متباله... إلخ ويبدو أن لأخبار الحمقى والمغفلين علاقة خاصة مع الإنسان، فهي تكسر بتصرفاتها الروتين الذي اعتاد أن يقضي الأمور من خلاله، فتحقق المفارقة التي تجلب الضحك وهذا ما استغلته حرب الأيديولوجيا الفكاهية أبرع استخدام.

(١٠٦) توثيبي مكحخوني، نوادر مضحكة للعلامة مار غريغوريوس يوحنا ابن العبري مفران المشرق ١٢٢٢. ترجم لنا هذه النوادر الأب يعقوب كامل طحان مشكوراً، وقد نبهنا إلى هذه النوادر المغترب عماد يعقوب. وابن العبري: من أكبر علماء القرن الثالث عشر. بدأ حياته كناسك ثم دخل سلك الكهنوت، وهو طبيب ومؤرخ وأديب ومن أعلام الكنيسة السريانية.

(١٠٧) وكلمة { ديُونُو } الواردة في الأصل السرياني تعني: مجنون - مختل - معاق - غير مبال...

الأبشيهي (٧٩٠-٨٥٠ هـ):

نعود إلى الأدب العربي وما رواه الأبشيهي عن الحمقى والمغفلين في " المستطرف من كل فن مستظرف " ونلاحظ الاقتباس عن بن الجوزي فيها:

• " سُمع مؤذن حمص يقول في سحور رمضان تسحروا فقد أمرتكم، وعجلوا في أكلكم قبل أن يؤذن فيسخم الله وجوهكم^(١٠٨) .

ومن نوادير القضاة يروي الأبشيهي^(١٠٩):

• " أن تاجرا عبر إلى حمص فسمع مؤذنا يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن أهل حمص يشهدون أن محمدا رسول الله فقال والله لأمضين إلى الإمام وأسأله فجاء إليه فرآه قد أقام الصلاة وهو يصلي على رجل ورجله الأخرى ملوثة بالعدرة فمضى إلى المحتسب ليخبره بهذا الخبر فسأل عنه فقبل إنه في الجامع يبيع الخمر فمضى إليه فوجده جالسا وفي حجره مصحف وبين يديه باطية مملوءة خمرا وهو يحلف للناس بحق المصحف أن الخمرة صرف ليس فيها ماء وقد ازدحمت الناس عليه وهو يبيع فقال والله لأمضين إلى القاضي وأخبره فجاء إلى القاضي فدفع الباب فانفتح فوجد القاضي نائما على بطنه وعلى ظهره غلام يفعل فيه الفاحشة فقال التاجر قلب الله حمص، فقال القاضي لم تقول هذا فأخبره بجميع ما رأى فقال يا جاهل أما المؤذن فإن مؤذنا مرض فاستأجرنا يهوديا صيتا يؤذن مكانه فهو يقول ما سمعت وأما الإمام فإنهم لما أقاموا الصلاة خرج مسرعا فتلوثت رجله بالعدرة وضاق الوقت فأخرجها من الصلاة واعتمد على رجله الأخرى ولما فرغ غسلها وأما المحتسب فإن ذلك الجامع ليس له وقف إلا كرم وعنبه ما يؤكل فهو يعصره خمرا ويبيعه ويصرف ثمنه في مصالح الجامع وأما الغلام الذي رأيتَه فإن أباه مات وخلف ما لا كثيرا وهو تحت الحجر وقد كبر وجاء جماعة شهدوا عندي أنه بلغ فأنا أمتحنه فخرج التاجر من البلد وحلف أنه لا يعود إليها أبدا".

(١٠٨) الأبشيهي، تحقيق وتقديم عبد الله أنيس الطباع، ص ٧٩؛

(١٠٩) الأبشيهي، مرجع سابق ٢ / ٧٧؛

ويورد القزويني(1283_1203م) حادثة كنا ذكرناها سابقاً فهو يقول:

- "أما حكومة قاضي حمص فمشهورة، دُكر أنه تحاكم إليه رجل وامرأة، فقالت المرأة هذا الرجل أجنبي مني وقد قبلني، فقال القاضي: قومي إليه وقبله كما قبلك، فقالت: عفوت عنه! فقال لها: مري راشدة".

ويورد كل من ابن الجوزي والقزويني على لسان الجاحظ هذه الحادثة:

قال الجاحظ:

- مررت بحمص فمر عنز يتبعه جمل. فقال رجل لرجل معه: هذا الجمل من هذا العنز؟ فقال له: لا ولكنه يتيم في حجرها^(١١٠).
- مرت بحمص عنز تبعها جمل، فقال رجل لآخر: هذا الجمل لهذا العنز، فقال الآخر: كلا، إنه يتيم في حجره^(١١١).

نلاحظ في رواية ابن الجوزي أنه جعل الجاحظ شاهد عيان على الحادثة لتأكيد نظرته عن أهل حمص أنهم من "الحمقى والمغفلين على الإطلاق"، في حين لم يظهر الجاحظ في رواية القزويني إلا ناقلاً للحادثة على الرغم من تحامل الاثنين على أهل حمص. وبالطبع من شاهد الحادثة له مصداقية أكبر. وعليه فابن الجوزي يحاول إثبات أن الحمصي "أحمق" وأن حمص "بلد حماقة"!

ويروي صاحب الأغاني هذه الحادثة تحت عنوان أهل حمص لا يستطيعون غنائه:

- قال حماد في خبره قال أبي حدثني بعض أهل العلم بالغناء عن حنين-الحييري- قال: خرجت إلى حمص ألتمس الكسب بها وأرتاد من أستفيد منه شيئاً فسألت عن الفتيان بها وأين يجتمعون فقبل لي عليك بالحمامات فإنهم يجتمعون بها إذا أصبحوا فجئت إلى أحدها فدخلته فإذا فيه جماعة منهم فأنست وانبسطت وأخبرتهم أنني غريب، ثم خرجوا وخرجت معهم فذهبوا بي إلى منزل أحدهم، فلما

(١١٠) أخبار الحمقى والمغفلين، ابن الجوزي، ص ١٣٧

(١١١) آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني، ص ١٨٥

قعدنا أتينا بالطعام فأكلنا وأتينا بالشراب فشرينا فقلت لهم: هل لكم في مغن يغنيكم، قالوا: ومن لنا بذلك، قلت: أنا لكم به هاتوا عودا فأتيت به فابتدأت في هنيات أبي عباد معبد فكاننا غنيت للحيطان لا فكهوا لغنائي ولا سوا به فقلت ثقل عليهم غناء معبد بكثرة عمله وشدته وصعوبة مذهبه فأخذت في غناء الغريض فإذا هو عندهم كلا شيء وغنيت خفاف ابن سريج وأهزاج حكم والأغاني التي لي واجتهدت في أن يفهموا فلم يتحرك من القوم أحد، وجعلوا يقولون: ليت أبا منبه قد جاءنا، فقلت في نفسي أرى أنني سأفتضح اليوم بأبي منبه فضيحة لم يفتضح أحد قط مثلها، فبينما نحن كذلك إذ جاء أبو منبه وإذا هو شيخ عليه خزان أحمران كأنه جمال فوثبوا جميعا إليه وسلموا عليه وقالوا يا أبا منبه أبطأت علينا وقدموا له الطعام وسقوه أقداحا وخنست أنا حتى صرت كلا شيء خوفا منه فأخذ العود ثم اندفع يغني:

طرب البحر فاعبري يا سفينة لا تشقي على رجال المدينة

فأقبل القوم يصفقون ويطربون ثم أخذ في نحو هذا من الغناء فقلت في نفسي أنتم هاهنا لئن أصبحت سالما، لا أمسيت في هذه البلدة فلما أصبحت شددت رحلي على ناقتي واحتقبت ركوة من شراب ورحلت متوجها إلى الحيرة وقلت ليت شعري متى تخب بي الناقة بين السدير والصنين محقبا ركوة وخبز رقاق وبقولا وقطعة من نون لست أبغي زادا سواها من الشام وحسبي علالة تكفيني فإذا أبت سالما قلت سحقا وبعادا لمعشر فارقوني^(١١٢).

وإذا انتقلنا بعد ابن الجوزي وغيره بنحو ٥٠٠ سنة، نقرأ للدكتور ميخائيل مشاقة الدمشقي (١٨٨٨م): الذي رافق إبراهيم باشا خلال فتوحاته للبلاد السورية وصفاً لما سمعه عن أهل حمص وشهده بنفسه، فيقول: "حكي لي قصص كثيرة عن سذاجتهم، لا يسعني ذكرها إذ قد يكون مبالغ فيها. وإنما أذكر منها ما شاهدته بعيني. وهو أنه في اليوم الثاني من دخولنا حمص (١٠ تموز ١٨٣٢)، عرض للأمير

(١١٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، ٣٠٦/٢-٣٠٧

إبراهيم باشا، أن في ناحية تل باب عمر قتلى وجرى من أولاد البلد يراد الكشف عنهم. فأرسلني الباشا للتحقيق في الأمر، فوجدتهم ثمانية رجال، أربعة منهم قتلى وأربعة جرحى، فسألت الجرحى عما أصابهم؟ فقالوا إننا أتينا هنا للفرجة على مكان العسكر فوجدنا كرة محشوة وفتيلها ظاهر. فأردنا أن نرى كيف تصعد وتهبط فأشعلنا الفتيل ووقفنا حولها ننتظر صعودها، ولا نعلم ما أعاقها عن الصعود، ثم انفجرت عندما اقتربنا وأصابنا ما تراه. فأذنت في دفن الموتى وعالجت المرضى ورجعت. ثم عرضت واقعة الحال لإبراهيم باشا فقال: اكتبها عندك لكي يقف منها المعلم بطرس كرامة^(١١٣) على ذكاء أهل بلده...

ويروي علي مروه في موسوعته عن الأدب الضاحك، حادثة نقلها عن تاريخ المسعودي تقول:

ذهب رجل من حمص ليشتري زيتاً فلم يسع الإناء فقلبه وقال للزيات: صب الفاضل هاهنا فأريق الزيت. وصب له الزيات الباقي على أسفل الإناء، فلما رجع إلى امرأته أراد أن يحكي لها القصة فقال لها: قلبت الإناء هكذا ليصب الباقي... فأريق الجميع...^(١١٤)

هذه "الحادثة" الطريفة تحولت إلى نكتة لا يحددها زمان ولا مكان تقول النكتة:

دخل فيلسوف شارد الذهن إلى محل تجاري ليشتري آنية من الخزف، فلمح واحدة في وضع مقلوب، فقال مندهشاً: عجيب، إن هذه الأنية ليس لها فتحة في أعلاها. ثم تناولها فقلبها إلى الناحية الأخرى التي بها الفتحة وصاح مرة أخرى: عجيباً ليس لها قاع" يعلق بو علي ياسين في على أن هذه النكتة نُشرت في مصر ١٩٤٧ وسمعتها

(١١٣) شاعر مجيد، فصيح اللسان، له العديد من الموشحات وتاريخات مشهورة، من مواليد حمص ١٧٧٤ فوضه الأمير بشير الشهابي الكبير تدريس ولديه وجعله معتمداً من قبله في كل ما له صلة بوالي عكا وبشؤون الدولة، وعين مترجماً في بلاط الأستانة وفيها توفى ١٨٥١ (تاريخ حمص، لعيسى أسعد)

(١١٤) موسوعة الأدب الضاحك، علي مروة ج٦، طرائف الأذكياء والمغفلين ص ٦٤-٦٥

"شخصياً" عن أهل حمص عام ١٩٨٩^(٢٠٩)، ولكن مع فارق أنها ذكرت في تاريخ المسعودي "كحادثة تاريخية" وأصبحت فيما بعد "نكته".

إذا دققنا في أخبار الحمقى والمغفلين بشكل عام، نلاحظ أنها في الغالبية كانت تتركز على أشخاص بعينهم محددين، كجحا، وهبنة... إلخ، في حين ذكر الحمصي كشخص خاص يتم من خلاله الدلالة على العام، وحاول البعض ممن ذكر أخبارهم أن يركب القصص بما يناسب الصفات العامة للأحمق، كي يرتديها الحمصي. وبالتالي نجحوا في إدخال الحمصي عالم الحمق من أوسع أبوابه. وكون "الأدب الضاحك" عند العرب بشكل خاص وبقية الشعوب عموماً غني بالسخرية والتهكم وذم الآخرين، فإن ذلك يصلنا إلى نتيجة مفادها أنه خلف كل نادرة أو طرفة أو نكته يتحرك جيش من الخلافات.

(٢٠٩) بيان الحد بين الهزل والجد، ص ٢٣٣

المعارضات الزينية على المنظومات الهلالية

حمص وحماة "الأعداء الحميمون"

أخذ صراع العصبية المحلية في سورية يتحول من طابعه التعصبي إلى مُزاح وتسلية منذ فترة طويلة وتحديدًا بعد "عصر الهزل" الذي ساد العصر العباسي، يمكن القول أن ذلك حدث بعد أن اندملت جراح السوريين مما ألحقه بهم تيمورلنك ولاحظنا الطابع الهزلي لهذه المصيبة التي حلت بأبنائها للتخفيف من وطأتها على الذاكرة الجمعية.

وهناك موضوع آخر حول التعصب إلى مزاح وهزل وهو ما يسمى المعارضات الزينية على المنظومات الهلالية، والتي يمكن اعتبارها نوع جديد مارسه الشعر مع انتقال العصبية إلى حالتها الهزلية لاسيما في القرن الثامن عشر، ولا أقصد أن هذه العصبية تلاشت تماماً وإنما تم تناسيها.

كان الشيخ مصطفى زين الدين الحمصي (١٨٢٦-١٩٠٠) أديباً وشاعراً، حسن الصوت، سافر إلى الأستانة ومنها إلى المدينة المنورة، ورجع بعدما طاف البلاد المصرية فرأى في تلك المدة أن الناس شديدي الإعجاب بالمنظومات الهلالية، التي ينظمها الشيخ محمد الهلالي الحموي [١٨٢٠-١٨٩٤] المشهور ببلاغته ونظمه للشعر والموشحات وكان ميالاً للجمال، أما الشيخ زين الدين فكان ميالاً لحب الطعام لدرجة التغزل به "وللناس فيما يعيشون مذاهب" فقرر معارضتها، وكان كلما خرج الشيخ الهلالي بقصيدة عارضها على نفس البحر متغزلاً بالمآكل، وعندما كانت تُحمل للهلالي، ويقرأها كان يمتلئ غيظاً وبيالغ في ذمه قائلاً: لا أشبع الله بطنه، وربما يُعثر بحمصي في حماة فيقول له: أما آن لكم أن تشبعوا جوعانكم يا أهل حمص، وكان الحمويون يتلقون معارضاته "بأن يكثروا المزاح مع الهلالي باستحسان أقواله ومعارضته لتقطيع الأوقات وجلب البسط..".

وأطرف ما جرى بينهما هي الدعوى التي رفعها الهلالي عليه، وانتهت المحاكمة بأن أمر القاضي الزيني أن يكف عن معارضة الهلالي وإلا عاقبه لأنه لا يعارض غيره، وبعد انتهاء المحاكمة قبلاً ذقنيّ بعضهما، وأقبلا بعد ذلك ليقبلا يد الباشا، فأجاز كل واحد منهما بذهب عثمانى، فأعطى الهلالي ذهبه سرّاً للزيني، حتى يضمن أذاه. وما هي إلا أيام حتى عاد لمعارضته، فأنتقل الهلالي وعقله يكاد يخرج منه، باحثاً عنه في شوارع حماة، فوجده في دكان قصاب، يأكل، فعزمه الزيني، فقال له الهلالي: أحاله الله سماً ولا أشبع لك بطنك، ويحك ما الذي دعاك إلى نقض العهد ومخالفة أوامر الحاكم، فقال الزيني، حملني على ذلك الجوع وحب الطعام. فقال له الهلالي: ولم لا تذهب إلى بلدك؟ أجابه: أنا ضيف، فهل رأيت أو سمعت من يطرد الضيف؟ فقال: يطرد إذا كان ثقيلاً مثلك. فقال الزيني: لو كنت ترى ما أفعله معك من الإكرام مقابل طردى. فقال الهلالي: ليت بيني وبينك بعد المشرقين فيبئس القرين، ما عاذ الله أن أحل ببلدة أنت فيها.. "ولكن كما يروى فقد أصبحا صديقين حميمين فيما بعد. ومن معارضات الزيني للهلالي، نختار هذه الأبيات: يقول الهلالي في أحد قدوده:

يا بدر حسن كم سهرت أراقبه والليل مالت للغروب كواكبه
 ما من كليم الوجد أنت مصاحبه إلا ومغناطيس حسنك جاذبه
 للحن و الألقان قم يا أبا الأشجان بالخور و الولدان
 فالحب دين والجمال مذاهبه

ويعارضه الزيني:

يا صدر بصما كم برزت أحاربه والقطر طابت للنفوس مشاربه
 ما من أرز واللحوم تصاحبه إلا و مغناطيس بطني جاذبه
 بالكف و الأسنان بالله يا جوعان قم سقسق الرغفان
 فالجوع شينٌ والطعام يناسبه

وفي قدّ آخر يقول الهلالي:

إن داعي الأنس صاح
لاح نجم الكأس لاح

نبه الندمان صاحي
حيث من أيدي الملاح

يعارضه الزيني:

إن داعي البطن ناح
راح هم الجوع راح^(١١٥)

قدّم الخرفان ناحي
حيث من لحم الأضاحي

(١١٥) عن ديوان تذكرة الغافل في استحضار المآكل، جمعه: محمد الخالد الحلبي الحمصي

ليتزوجيا عيد المجانين المندثر

مجاديب أم مجاذيب

" قال ولد لأبيه: لماذا يقولون عنا مجاذيب، أجابه والده نحنا مجاذيب، ويحورون الكلمة حسداً، دُقْ عَ الخشب يا ابني، فدق الولد، قال له الأب انتظر حتى أفتح الباب، قال له الولد: خليك قاعد يا بابا، أنا أفتح الباب".

يكتفي كثير من المدافعين عن " ذكاء أهل حمص" بالقول عن عدم دراية أو جهل أن أهل حمص مجاذيب وليسوا مجاذيب التي حورت لوسم أهل حمص بالجذبة ويعتقدون أن مجاذيب جاءت من "الجاذبية، أو جمال الشخصية".

في الحقيقة لا يختلف المعنيان لغوياً بحسب معجم المنجد الأبجدي فالمجذوب هو الأبله، والمجذوب هو المختل عقلياً. لكن الناحية الاصطلاحية- إن صحت التسمية- تختلف تماماً، وهناك أيضاً تسمية تكنى بها حمص وهي مدينة الدراويش والفقراء وهي تسمية يتداولها أهالي المدن السورية عن هذه المدينة.

وفي الطرق الصوفية يشكل المجذوب والدرويش درجة رفيعة من درجاتها، فالطريقة الرفاعية^(١١٦) مثلاً دخلت إلى حمص [١٧٦٤م-١٨٣١هـ] وكان لمشايخها تصور كوني في تدبير العالم الذي يعيشون فيه فهم يرون أن الدرجات الصوفية هي كما يلي: أقطاب الدائرة، الأوتاد، الأبدال: ومسكنهم الشام، الأنجاب، النقباء: مسكنهم المغرب، المجاذيب وهم صالحى هذه الأمة وهم رجال الغيب المعنون (بأهل الله)^(١١٧).

أكثر من ذلك فإن حضور الطرق الصوفية في مدينة حمص ترك بصمة واضحة في التراث الديني لهذه المدينة وتشارك الطرق الصوفية بشكل عام بدرجات مرديها:

١- المرید ٢- الشاويش ٣- النقيب ٤- الدرويش ٥- الخليفة.

(١١٦) مؤسسها أحمد الرفاعي (٥١٢-٥٧٨هـ، ١١-١٨٢م)

(١١٧) حمص دراسة وثائقية، ص ٢٨٣

وإذا عدنا إلى قصة المحتال لابن الجوزي الذي حاول استغلال "حمق أهل حمص" نلاحظ ورود ذكر للأبدال، و للأبدال مكانة مميزة لدى أبناء المنطقة وهذا يتضح مما قاله الإمام علي بصفين "وأهل العراق يسبون أهل الشام: يا أهل العراق لا تسبوا أهل الشام، فإن فيهم رجالاً كارهين لما ترون، وإنه بالشام يكون الأبدال"^(١١٨) وهذه القصة تُفسر ليس حمق أهل حمص وإنما استهتار بغداد في الشؤون الدينية الأمر الذي حالت إليه البلاد في العصر العباسي كما مرّ سابقاً.

إذا يقترب هذا الأمر من الصحة عندما نعلم أن الجذب الصوفي أو "المجذوب" هي مرتبة من مراتب التصوف، وعلى الرغم من انتشار الطرق الصوفية في العديد من البلاد الإسلامية ومنها بلاد الشام، إلا أن حمص حازت على أهمية خاصة في هذا المجال، و ليس غريب على حمص أن تكون مركزية من الناحية الدينية ونحن نتذكر الآن ديانة الشمس الحمصية التي وصلت إلى روما في عهد جوليات حمص (جوليا دومنا وممايا وميسا) اللواتي حكمن روما.

هنا تبرز أهمية التوسع في مجال تاريخ الأعياد والطرق الصوفية، لعدة أسباب: أولها لأن انتقاء يوم الأربعاء يوماً للمجانيين في حمص لم يكن عبثياً فله جذوره الدينية وثانيها مرتبط بالأول إذ كان لأهالي حمص طقوس يمارسونها في الأعياد بدايات القرن الماضي ولها جذور في العبادات القديمة.

يوم الأربعاء:

الأربعاء رمز الشؤم والتطير عند العرب. فابن العباس يعتبر "آخر أربعاء في الشهر نحس مستمر" و أحد الشعراء يقول:

الأربعاء وحش النحس فيه منكمش،

والأخذ والعطا من ذوي المودات خطا

ويمثل يوم الأربعاء في "ذاكرة التراث السوري" المشاكسة والمعاكسة والإخفاق في العمل (مثل الأربعاء بنص الجمعة) ويحمل الحزن والهجم (الأربعاء دمة) (الأربعاء يوم

(١١٨) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر(٤٤٩-٥٧١هـ)، تحقيق: علي شيري

وحشُ والرزق فيه منكمش) ومن يولد في هذا اليوم يكون رديء العيشة وسيئ الحال^(١١٩).

وتتذكر ما قيل عن أهل حمص في الرواية الشعبية بعد نجاتهم من بطش تيمورلنك "جديها أهل حمص، يوم الأربعاء" وفيه يحتفلون بعيدهم.

فهل يصح أن يكون يوم الأربعاء يوم للمجانين ؟ وما هو يوم المجانين ؟ وأي نوع من المجانين كان من يحتفل به؟

ما يثير الاستغراب أن العرب كانت تعتبر هذا اليوم يوم "ندى ومكارم" إلا أنه أصبح يوم للشؤم على حد تعبير الشاعر

أقول ليوم الأربعاء وقد غدا

علي بوجه أغبر اللون قائم

بعثت علي الأيام نحساً مؤبداً

بشؤمك يا يوم الندى والمكارم

عرف هذا اليوم في التاريخ الإنساني باسم الرمز التوتوني الأكبر "وودن" رمز الحكمة والشعر الحرب .^(١٢٠)

يورد الدكتور عبد الكريم اليا في كتابه/دراسات فنية في الأدب العربي/ الفصل الذي يدرس فيه أعمال، المفكر الإسلامي الصوفي محي الدين ابن عربي، قصيدة لابن عربي يبحث فيها اختصاصات يوم الأربعاء، تقول هذه القصيدة:

نبي له الأرواح أيان يميما

فكان ليوم الأربعاء متمما

على روح الفرار فيسمى مجسما

وكان شجاع في التراكيب مقدما

سلام على عيسى المسيح ابن مريما

على سر إحياء الموات ونشرها

وكتابه الوهمي يرسل وهمه

فكان لطيفاً في التحاليل صانعاً

(١١٩) جريدة الخليج-١٥ آب/١٩٩٥ مقال بعنوان حرب النكتة... بين حمص وحماة

(١٢٠) المرجع السابق

يقول د. الياي: ربط ابن عربي يوم الأربعاء بالسيد المسيح، ونعثر في القصيدة أيضاً على لفظ الفرار وهو الزئبق عند العرب، وأهميته عند القدماء كبيرة في الكيمياء، ومن المعروف أن لفظ الزئبق باللاتينية هو مركوريوس، وهو يدل أيضاً على الإله المسمى بهذا الاسم، وعلى كوكبه عطارد، وقد أعطى الإله مركور الروماني اسمه ذلك المعدن وخصص له يوم الأربعاء، فيوم الأربعاء بالفرنسية MERCUREDI هو يوم مركور MERCURII DIES، ويعلمنا تاريخ الديانات وتاريخ الفكر الإنساني والفلسفة والميثولوجيا، بحسب د.الياي أن مركور عند الرومان يقابل هرمس عند اليونان وهما يقابلان تحوت عند المصريين القدماء وهو إله العلوم والفنون ومرشد الناس إلى أسرار الفكر الإلهي، ورمز النشاط الإنساني والصناعة وإله التجارة والسياحة وهو أيضاً رسول الحب والوسيط بين الآلهة في قضايا الحب وهو المكلف في المساء بأن يقود الأرواح إلى مساكنها المظلمة، ... ثم نسب بعض الفلاسفة المسيحيين إذ ذاك بعض صفات الإله مركور كما لخصناها إلى السيد المسيح" (١٢١).

بعد كل ذلك هل يكون يوم الأربعاء يوم للمجانين ؟

إذاً لا يصح من الناحية الدينية أن يكون يوم الأربعاء يوماً للمجاديب الحماسنة، إلا إذا نظرنا لهم بعين العطف كما ينظر الناس للمعتوهين وذوي العاهات والمجانين، لينتزعوا حسنة من الله تعالى على ما قدموه من عطف. لكن الأمر ليس كذلك فما أورده التاريخ عن أهل حمص من ناحية، وطبيعة النكت السائدة اليوم من ناحية أخرى تدل على أن المجاديب نعتٌ نفسي بقصد الانتقام والتشفي. أما ما تخبرنا إياه الليتورجيا فمختلف تماماً، إذ من خلالها نعلم أن أهل حمص كانوا يحضرون لأعياد الربيع القديمة يوم الأربعاء...

(١٢١) دراسات فنية في الأدب العربي، د. عبد الكريم الياي، ص ٤١٣

أعياد الربيع القديمة في حمص

لا يمكن عزل ما يشاع من وسمٍ للحمصيين بالجدبة وأن لهم يوم في الأسبوع يحتفلون فيه " بجذبدهم" هو يوم الأربعاء "عيد المجانين"، سواء كان ذلك بهدف التسلية أو الجد، عن تاريخ المدينة بشكل عام والأعياد التي كانت تقام بها .

هذه الأعياد هي خميس الضايح "التائه"، خميس الشعنونة، خميس المجنونة، خميس القطط، خميس النبات، خميس الأموات، خميس المشايخ ويسمى أيضاً " خميس الأسرار، وخميس البيض".

كانت احتفالات أعياد الربيع القديمة تشمل فترة الاعتدال الربيعي موزعة على شهري آذار ونيسان، وربما شباط وآذار وإن كان هذا نادراً. " ويستخدم تاريخ الفصح المسيحي الأرثوذكسي كنقطة مرجعية لتحديدتها"^(١٢٢).

ونجد لهذه الأعياد استمراراً في الأعياد المسيحية ثم الإسلامية فأخر " خميس من السبعة يتطابق مع خميس الآلام السابق مباشرة لعيد الفصح. ويقع أول خميس، أي قبل ذلك بتسعة وأربعين يوماً، في الأسبوع الذي يبدأ بـ " اثنين الراهب"^(١٢٣) (أي في الخميس الذي يسبق / اثنين الراهب/ في شباط وهو بداية الصوم الكبير لدى المسيحيين على التقويم الشرقي)^(١٢٤) وهو خميس المشايخ. علماً أن الأحد الذي يسبق أحد الفصح هو /أحد الشعانين/ ثم يليه خميس المشايخ ثم الجمعة العظيمة فسبت النور فعيد الفصح. و" كان رجال الدين الإسلامي، وبشكل خاص المتصوفون، على علاقة وثيقة بأعياد الربيع- هذه وبخاصة العيد الأخير"^(١٢٥).

ويرى بعض الباحثين في تاريخ المدينة أن أعياد " الخمسانات" " كما تلفظها العامة" التايه، الشعنونة، والمجنونة، و القطط، ليس فيها مواسم، لوقوعها في أواخر

(١٢٢) أعياد الربيع القديمة في حمص، ص ١٣

(١٢٣) مصدر سابق، ص ١٣

(١٢٤) حمص دراسة وثائقية، ص ٢٠٥

(١٢٥) أعياد الربيع القديمة في حمص، ص ١٣

الشتاء بين شباط وآذار أما/ خميس النبات والأموات أو الحلوات والمشايخ فلها مواسم وطقوس للاحتفال بها" (١٣٦).

لكن الباحث الفرنسي جان إيف جيلون، يفترض أن أعياد "الخمسانات" التي كانت سائدة في حمص حتى مطلع خمسينات القرن الماضي، كانت تعبيراً عن أعياد الربيع القديمة وامتداداً لها، وهو لا يهمل الأخمسة الأربعة الأولى التايه، الشعنونة، والمجنونة، التي توقف الاحتفال بها منذ زمن بعيد.

حيث يقول: "نظرياً يمكن ترتيب مسار الطقوس المختلفة لأعياد الربيع القديمة بموجب النظرية العامة لمرسيليا إلياده التي تدرس "الوقائع الدينية من الناحية الفينومولوجية (الظاهراتية) والتاريخية" (١٣٧) كالتالي: انكفاء نحو العماء، تطهير وتضحية، معركة مظفرة ضد قوى الظلام، سطوع قوى النور، تحديد المصائر، الابتهاج بالحياة الجديدة" (١٣٨).

يتابع جيلون ومع احتمال أن نخطئ فيما يخص الأخمسة الثلاثة الأولى، إذ لا يمكن أن نؤكد بخصوصها أي شيء مثبت، يمكن توزيع أعياد الربيع في حمص إلى: طور مظلم (الأخمسة الثلاثة الأولى التايه، الشعنونة، والمجنونة)، وطور أكثر إشراقاً أو طور صاعد (الأخمسة الأربعة التالية القطط، خميس النبات والأموات والمشايخ).

وفق تقسيم أعياد الربيع السابقة يمكن تقسيم الأعياد المسيحية، التي يبدأ الاحتفال بها بين شهري شباط وآذار وتمارس فيها طقوس موت الإله وإعادة بعثه. فالمسيح بتجلياته المختلفة عبر العصور يمثل قوى التجديد (الجيل الجديد) التي تتصارع مع النظام القديم الذي لا بد من اندثاره (يوم المجانين) بالتضحية بنفسه وإقفار اللحظة التي تتلاشى فيها الحياة (المراثي) خميس الأموات. ويعتقد الباحث جيلون "أن الفترة المناسبة التي انبعثت فيها ممارسة الشعائر القديمة... كانت على الأغلب

(١٣٦) حمص دراسة وثائقية، ص ٢٠١

(١٣٧) المقدس والدينيوي، مرسيا إلياده، ترجمة نهاد خياطة، ص ٥

(١٣٨) أعياد الربيع القديمة في حمص، ص ١٠٥

فترة ركود نسبي على المستوى الاجتماعي- السياسي: فلم تتشط في فترة الازدهار بداية العصر الوسيط بل في نهايته. وحتى في الفترة العثمانية أيضاً وتحديداً القرن الأخير منها.^(١٢٩) أي أن هذه الاحتفالات مورست على مراحل متقطعة.

❖ ما يهمننا من هذه الأعياد التي قدمنا فكرة موجزة عنها هو الأعياد الأربعة الأولى وللأسف " فإننا سنقتصر على الفرضيات التي تتولد عن دراستها " فحتى " النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم يكن قد بقي من هذه الأيام أي احتفال شعبي"^(١٣٠). وما سيقدم من تفسيرات حولها يعتمد على " النمطية العامة لأعياد التجدد، وعلى المقارنة مع مجموعات الأعياد المماثلة التي لا تزال باقية في بعض القرى السورية كما يقول جيلون، وبه نستعين بهذه التفسيرات:

خميس الضايح:

يسمى أيضاً خميس التايه. وبعضهم يعتبرهما يومين متميزين^(١٣١). ومن مواعده، لا يمكن أن يكون يوم مرح، حيث ينتمي هذا اليوم إلى "الوجه المظلم من فجر" السنة الجديدة ويمكن أن يترجم اسمه بـ "EJEUDIL*JAR" (بالفرنسية) شرط أن نوضح أن كلمة "الضايح" تحيط، كمرادفها الفرنسي، بمجموعة من المعاني تتضمن معنى " الحائر، فاقد الرشد، المضطرب... "^(١٣٢).

كما أن كلمة "التائه" يمكن أن تشير إلى الضياع الجغرافي كما تشير إلى الضياع العقلي. وقد يكون خميس الضايح هذا هو أيضاً خميس القلق والبلبله.

خميس الشعنونة:

كلمة "شعنونة" تدل على ربة منزل مهملة وقذرة". وإذا ما توقفنا عند هذا الشرح، فإننا سنسلم بأن هذا اليوم واقع تحت رعاية كيان أنثوي غير محبب. إذ يمكن أن

(١٢٩) مصدر سابق، ص ١٥٩

(١٣٠) مصدر سابق، ص ١٥

(١٣١) مصدر سابق، ص ١٤

(١٣٢) مصدر سابق، ص ١٣٧

نقارب بين هذا الكيان من "العجوز"^(١٣٣) ومن الغولات المعروفة جيداً في الفلكلور المتوسطي.

خميس المجنونة:

هل هذا الخميس هو "يوم المجانين"؟ ونعني بذلك اليوم الذي ينقلب فيه النظام الاجتماعي تماماً، مع احتمال اشتماله على بعض التصرفات الإباحية. فيوم المجانين من العناصر الأساسية، ويعتبر غيابها عن سيناريو تغيير السنة أمراً غير طبيعي نوعاً ما. أضف إلى ذلك أن أيام المجانين أمر مثبت في تاريخ المشرق القديم^(١٣٤) وكان لها وجود دون شك في العصر الوسيط. ولا بد أنها تلاشت تدريجياً بفعل التشدد المتزايد في المواقف الاجتماعية، وإذا ما كان ليوم المجانين وجود سابق في حمص، فمن المتوقع أن لا نجد عنه في أيامنا هذه إلا أثراً مبهماً على شكل تسمية فقدت معناها^(١٣٥).

(١٣٣) لقد وصف جان سيرفيه بشكل جيد في التراث البربري. "عجوز يناير" (أي عجوز شهر كانون الثاني) هي غولة رهيبة تمارس أفعالها الضارة قرب حلول الانقلاب الشتوي. "... وحسب المناطق، يتأرجح موعد طقوس تغيير الدورة بين الشتاء والربيع، ولكن ضمن إطار هذه الخلخلة الظاهرية، هناك عنصر لا يتغير: سيناريو الدراما الأسطورية التي أعطت اسمها "لأيام العجوز"... تقوم امرأة عجوز بممارسة نشاط ربيعي، كأن ترعى عجلها أو عنزتها مثلاً أو تمخض اللبن من أجل استخراج الزبدة وغالباً ما تزيد في خطورة موقفها بالتهكم على الشهر الجاري لأنه ليس بارد بالقدر الكافي لمنعها من ممارسة نشاطها قائلة: "لقد نجوت منك، نجوت منك، يا كانون الثاني مع عجلي". فتعاقب على ذلك بعاصفة هوجاء أو عاصفة ثلجية أو فيضان، وهذه الأمور غالباً ما تكون قاضية عليها"... أعياد الربيع القديمة في حمص، هامش ص ١٣٨... وفي كثير من المدن السورية تعرف الأيام الأخيرة من شباط "بأيام العجوز" حيث يتفق شباط مع آذار قانلاً: "آذار يا ابن عمي ثلاثة منك وأربعة مني تنخلي الشلال يغني".

(١٣٤) يقول جيلون لا بد أن الأكيثو(عيد ربيعي في بابل) كان يعرف طور الانكفاء هذا، والذي يتوافق مع فترة سيطرة تعامات التي تتصف بانقلاب الشروط الاجتماعية (إذ يصبح العبيد أسياداً). أنظر مرسيا إلياده، أسطورة العودة الأبدية، وقد أخذنا "يوم المجانين" أو "عيد المجانين" من العصر الوسيط الأوربي مع إعطائه قيمة عامة ونجهل ما إذا كانت قد استخدمت تسمية مماثلة في المشرق. أعياد الربيع القديمة في حمص هامش ص ١٤١

(١٣٥) مصدر سابق، ص ١٠١

وهذا بالفعل ما نلمسه فيما يخص موضوع بحثنا ، فحمص استطاعت بفضل عيد المجانيين ويوم الأربعاء أن تكون بمثابة ذاكرة دينية يمكننا من خلالها أن نستدل على التراث الروحي الذي تزخر به هذه المنطقة ، فيوم الأربعاء ويوم المجانيين ضروري في الفكر الديني القديم إذ منه يتم اندثار القديم وحلول النظام الجديد محله. وهكذا فإن روح حمص الخالدة تشكلت بأناة من خلال استمرارية الطقوس السامية والبابلية^(١٣٦).

مكانة حمص الدينية

نعلم الآن أن يوم المجانيين كان موجود كإحدى خُمسانات الاحتفال بأعياد الربيع وكان يشتمل على تصرفات الإباحية ، دعت كل من رآها من التجار أو الرحالة أو المسافرين إلى اعتبارها سلوكيات شاذة فاعتقدوا أن في هذا الشعب لوثة. وعليه فعيد المجانيين يجب أن يكون يوم الخميس وليس الأربعاء لأنه في يوم الأربعاء كان يتم التحضير لأعياد الخمسانات السابقة ومنها عيد المجانيين.

طبعاً نغالي إذا قلنا أن هذه الأعياد كانت حِكراً على حمص، لكن ما يميز وجودها في حمص أن موسمها كان "موسم إشعاع إقليمي لا ينكر" إذ كان الزوار القادمون عديدون جداً "من اسكندرون إلى صور، ومن حلب إلى عمان، وحتى من القدس ومن القاهرة"^(١٣٧). فحمص كانت كعبةً يحج إليها الناس من كل حذب وصوب.

يقول الرحالة والمؤرخ وصفي زكريا في وصف الاحتفال بخميس المشايخ في حمص: يركب مشايخ الطرق الصوفية "الأكاديش، ويتظاهرون وهم عليها، بالبله والاسترخاء، وإسالة اللعاب في الأفواه ويتبعهم مريدوهم... وكان هؤلاء المشايخ قبلاً، يأتون باسم الدين فيما يأتونه من حركات الخبال والسخف، أكل النار والزجاج،

(١٣٦) إمبراطورات سوريات، مرجع سابق، ص١٩

(١٣٧) أعياد الربيع القديمة في حمص، ص٦٦

ضرب السفود والاتكاء على السيوف، والدوس بأكاديشهم على ظهور الرجال الممددين، وغير ذلك مما ينكره الدين ويمجه العقل السليم...^(١٣٨).

ويتبين من كلام الأستاذ نجاة قصاب حسن في معرض حديثه عن خميس المشايخ الذي كان يُقام في برزة بدمشق وهو يصف مشاهدته الشخصية لما كان يجري فيه من طقوس قائلاً: "... فيأتي الموكب كما في حمص تتقدمه الأعلام والرايات الصوفية وضاربو الدفوف..."^(١٣٩).

روى لي رسام الكاريكاتير العالمي الصديق علي فرزات عن والده أن طقوس الاحتفال بعيد المشايخ لم تكن تخلو من روح الفكاهة وكان هناك لعبة شهيرة يشارك بها الحضور تدعى البوسطجي، كانوا ينتقون لأداء دور البوسطجي من له ذقن طويلة ويعلقون على رقبتة سلة من القصب بحيث تلامس لحيته أسفل السلة وكان يدور على المشايخ المشاركين في الاحتفال ويطلب إليهم أن يضعوا رسائلهم في السلة، الطريف في هذه اللعبة أن آخر من يضع رسالة في هذه السلة يقوم برمي ورقة مشتعلة لحرق ذقنه وكان الحضور يضحكون من صاحب اللحية وهو يحاول إنقاذ لحيته المحروقة.

يلحق فرزات على هذه اللعبة قائلاً إن لهذه اللعبة مدلولات مهمة فهي رسالة للحاضرين بأن الدين ليس بتربية اللحي والأمور الظاهرية، ويتابع رغم أن لهذا العيد طابع ديني إلا أن فيه انتقاد للتشدد الديني لا يخلو من روح الفكاهة.

يتبين أن حمص كانت مرجعاً دينياً وبشكل أدق مرجع طقوسي. واعتقد أن لهذه الخمسانات علاقة بعبادة إله الشمس الحمصي الذي عبده أهل حمص " هذه العبادة ستشرح لنا بين طيات حكايتها، لماذا اتسم موقف أهل حمص بالتناقض فيما يخص الشأن الديني؟

(١٣٨) جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، صفحة ٣٥٤

(١٣٩) حديث دمشقي ١٨٨٤-١٩٨٣، نجاة قصاب حسن، ص ٣٥١

قادش (المدينة المقدسة)

على بعد خمسة كيلومترات إلى الغرب من منطقة القصير جنوب غرب حمص يقع تل النبي مندو الذي يرتفع في أعلى نقطة له لحدود ٣٠ م... هذا التل يحتض أطلال مدينة قادش...

قادش أو المدينة المقدسة واحدة من أهم ممالك المدن التي "يرجع بنائها إلى الشطر الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد وقد عاصرت مملكة قطنا الواقعة في تل المشرفة إلى الشمال من مدينة حمص حسب ما يقول الباحث نعيم الزهراوي"^٣ هذه المدينة (المقدسة) أصبحت، بعد دخول الحثيين إلى سورية من الشمال حوالي ١٥٠٠ قبل الميلاد ، حاضرة دينية لهم.

سياسيا كانت هذه المدينة منطقة لتقاسم النفوذ على شمال سورية الذي كان تحت سيطرة الحثيين(وقبلهم الميتانيين) وجنوب سورية الذي كان تحت النفوذ المصري.

استراتيجيا في السهل الذي تطل عليه المدينة حصلت الحروب الشهيرة بين الحثيين والمصريين لبطس السيادة والنفوذ.

دينيا كانت قادش، عدا عن كونها مركزا دينيا للحثيين، بوابة لاحتكاك الحضارتين الحثية والمصرية ما جعل لها أثرا كبيرا في تلاقح الفكر الديني بينهما و"بخاصة تأثير عبادة الشمس المصرية عند الفرعون أخناتون في المعتقد الحثي" كما يقول الأديب الحمصي شاكر مطلق^٤.

(٣) جذور ريف حمص، نعيم الزهراوي ج٧ ص ٢٠٠-٣٥٢

(٤) د. شاكر مطلق ندوة حمص الأثرية والتاريخية الأولى

إله الشمس الحمصي

المكانة التي شغلتها حمص في الشؤون الدينية تعززها ديانة الشمس التي حاول بسيانوس الملقب بإيلاكا بعل أحد أباطرة الأسرة الحمصية نشرها وحلت في وقت من الأوقات (٢٢٠-٢٢٢م) محل آلهة الأوليمب وكبيرهم جوبيتر.

كان بسيانوس "أحد أصغر كهنة معبد بعل في حمص"^(١٤٠)، صاحب المحاولة الجريئة الثانية في التاريخ لنشر ديانة شمسية شمولية بعد الآتونية المحاولة الأولى التي قام بها الفرعون أمنحوتب الرابع (أخناتون) الذي حكم مصر (١٣٦٩-١٣٥٣ قبل الميلاد)^(١٤١). وقد أطلق الرومان على بسيانوس اسم إلهه "إيلاجابال" أو "إيلاكا بعل".

كانت جوليا دومنة "مؤسسة السلالة السورية" التي حكمت روما نهاية القرن الثاني الميلادي، ابنة "بسيانوس" الكاهن الأعلى لمعبد الشمس في مدينة حمص، وهو سليل الكهنة- الملوك الوارثين الذين حكموا المدينة في ماضيات الأيام، ولم يبقى لهم إلا السلطة الروحية الموروثة لأن الفتح الروماني جردهم من السلطة الزمنية^(١٤٢). وقد وصفت بالجمال والقوة الفكرية والمقدرة السياسية والأدبية إذ كان صالونها يضم كبار رجال العلم والأدب في ذلك العصر ومنهم بابنيان الحمصي أول المحامين الذين وجدوا وسيوجدون كما وصفه أحد أكبر شارحي القانون وجالينوس

(١٤٠) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ص ٣٤١

(١٤١) فراس سواح، مرجع سابق ص ٩٧-٩٣

(١٤٢) إمبراطورات سوريات، مصدر سابق، ص ٣١، لكن د. فيليب حتي يقول في تاريخ سورية أن حمص احتفظت بحكامها الوطنيين من الملوك الكهنة خلال فترة الحكم الروماني... وانضمت طبقة النبلاء في حمص وكذلك تدمر ودمشق إلى طبقة النبلاء الإمبراطورية لفترة من الزمن وساهمت بالتالي في إدارة الإمبراطورية حتى قبل أن يصل اثنان من أعضائها إلى العرش الإمبراطوري كان مؤسس الأسرة الحمصية رجلاً حُرّف اسمه باللاتينية فأصبح سامبسيرجرامس "يعني بالأرامية ليقوي إله الشمس" وقد جرد الإمبراطور دوميتان (٨١-٩٦م) ذريته من العرش... (مرجع سابق ص ٣٤٠)

الطبيب المشهور^(١٤٣) وغيرهم. هذه السيدة- معنى دومنة- "شجعت خطط زوجها القائد الروماني سبتموس سيفيروس الإفريقي للوصول لعرش روما"، ونجحا في ذلك.

ولدى انتقال جوليا إلى روما اصطحبت معها أختها الكبرى جوليا ميسا جدة بسيانوس "إيلاجابال" ابن ابنتها جوليا ماميا. نشطت الأميرات السوريات في الشؤون السياسية والدينية، "يدغدغ خيالهن حلم كبير بالقضاء على الفروق الدينية في الإمبراطورية الرومانية نحو نوع من التوحيد مؤسس على عقيدة الشمس الحمصية وإلهها الأوحده". وتجلى ذلك في سيرة جوليا دومنة التي تعكس "معتقداتها ذي الطابع الإنساني الشمولي"، فمن أعمالها أنها اتخذت مرضعة ومربية لابنها كركلا من الجماعات المسيحية التي كانت منبوذة من قبل المجتمع الروماني آنذاك، كما استعانت بعدد من هؤلاء المسيحيين رغم اعتراضات الكثيرين من حولها. في ذلك الوقت كان المسيحيين يجاهرون بعدائهم وازدراؤهم لكل العبادات الرومانية منها والوافدة، وقد وجدت جوليا كل تعصب وتحجر في المعتقد، الأمر الذي صرفها عن المسيحية بعد أن أنفقت وقتاً في دراسة أفكارها وتعاليمها^(١٤٤). وهكذا كان يفعل أهل حمص المتمرسين بالشؤون الدينية مع كل دين جديد يأتي إليهم.

ويروى عن دومنا روحها المرححة، وفي مجلسها كانت يتم تداول النكات الساخرة والنادرة الناعمة، يقول المؤرخ الحمصي فيصل شيخاني ذات مرة طلبت الأمباطورة جوليا من المفكر الروماني "أبنيان" العامل لديها في البلاط ويعتقد أنه سوري الأصل أن يروي لضيوفها ماحدث بينه وبين موظف الأمن عند عبوره نهر الفرات.

فقال أبنيان: أردت أن أعبّر نهر الفرات فسألني موظف الأمن ماذا تحمل معك .. ولما كنت لأحمل شيئاً قلت مازحاً: أحمل الصدق والوفاء والعدل وهذه الألفاظ في

(١٤٣) تاريخ سورية مرجع سابق، ص ٣٧٩

(١٤٤) فراس سواح، مرجع سابق، ص ٩٨

اللاتينية تنتهي بمقطع مؤنث فقال لي الموظف في استعجال جهاز ثلاثة جوازات سفر للفتيات الثلاث وأهلاً بك^٥.

طقوس العبادة

عبادة هذا الإله كان يتخللها الاحتفال بالقداس أمام الصنم المجلبب بالمجوهرات و طقوس عري بإثارة الحماسة حتى الهذيان في نفوس جمهور يمثل زواج الشمس الإلهي بزوجاته من بنات البشر. وكانت الرقى والتعاويذ والموسيقى والرقص على أنغام المزامير والطبالات، والتكرار المستمر لمقاطع ذات معان سرية وحركات طقسية يستمر إيقاعها ويصخب ويتسارع إلى حد الهذيان كان كل ذلك يثير نشوة الجماهير حتى الجنون فتنتهي عبادتها الطقسية هذه بممارسة عملية الزواج^(١٤٥).

كان إيلاجابال - الذي عرف بشدة اعتناؤه بالبهاج الكهنوتية - لذلك شبهه الناس بالإله ديونيسيسوس- وأمه جوليا ماما وجدته ميسا ابنة كاهن إله الشمس " بسيانوس " " يمارسون داخل المعبد المقدس " طقوساً سرية " كإنشاد الأغاني السورية وتقديم الصبيان قرباناً، كما شاع على ألسنة الناس في حينه، وممارسات أخرى كانت في نظر الرومان شاذة بقدر ما كانت مألوفاً في موطن القيصر^(١٤٦) حمص.

وفي الاحتفالات الرسمية كان إيلاجابال يقوم بكل مراسيم العبادة بصفته كاهن الإله أمام كبار مجلس الشيوخ وطبقة الفرسان، ما أثار استنكارهم. وقد استمر "إيلاجابال" القيصر في سلوكه الماجن بلا حدود، الذي أضيف إليه مجون مقربيه ورفاق حفلاته. وارتقى كل من الراقصين والممثلين وقواد العريبات والحلاقين أعلى المنازل لمجرد أنهم أثبتوا جدارتهم في حفلات البلاط الماجنة^(١٤٧). لكن سعي إيلاجابال فشل، وتخلّى عنه في النهاية كل معين حتى جدته ميسا، وفي إحدى الليالي من آذار ٢٢٢م استشهد في سبيل معتقداته على يد الجنود مع أمه ماما وألقيت جثتهما في نهر التيبير.

(٥) النكتة الحمصية من جوليا دومنا إلى يومنا، تقرير في وكالة سانا / /

(١٤٥) إمبراطورات سوريات، مرجع سابق، ص ٣٢

(١٤٦) إله الشمس الحمصي، فرانثس التهايم، ترجمة: إيرينا داود، دار المنارة، ص ٦١

(١٤٧) إله الشمس الحمصي، ص ٦٥

مارس الناس تلك المظاهر بشكل واسع في مدينة حمص، "ويبدو أن هذا الإله كان في الوقت نفسه محل تقديس الكثيرين من خارج المدينة، لأن معبده كان مهوى أفئدة الحجاج من كل حذب وصوب، يؤمنونه لتقديم فروض الاحترام للحجر الأسود^(١٤٨) الشهير الذي كان رمز الإله الأوحده^(١٤٩) وكما أثار سلوك الملك الشاذ استغراب وسخط الرومان لا بد أنه أثار استغراب كل من مرَّ بـحمص.

في ختام الحديث عن إله الشمس الحمصي نذكر هذه القصة. عندما اعتلى "إيلاجابال" عرش روما، جاء من أراد إقامة نصب يكرمه وينقش عليه نعوت الإمبراطور وألقابه الحربية، على سنة السابقين له، نهاه قائلاً: لا أحتاج إلى أن أذكر بألقاب الحرب وسفك الدماء، يكفي أن تكتبوا بأني رجل يتقي الله^(١٥٠). فأنى لمدينة كحمص أن توصف بالضلال كما وصفها ياقوت الحموي. أو الحمق كما وصفها ابن الجوزي.

(١٤٨) الحجر الأسود من بين المعبودات الوثنية حتى وبعد ظهور الأديان السامية، وهو من الحجارة النيزكية التي تخلفها الشهب وقد اعتقد الأقدمون أنها نازلة من السماء، وقد اشتهر في الشرق ثلاث من الأحجار السوداء وهم الحجر الأسود عند الأنباط: عبد بشكل حجر أسود وضع في مكة، وجد مقامه في خربة التنور جنوب شرق البحر الميت ويرجح أنه بني في القرن الأول ق.م. والحجر الأسود في مكة: حجر نيزكي موضوع في الجدار الجنوبي الشرقي للكعبة في مكة، يقبله الحجاج في موسم الحج، الحجر الأسود في حمص وهو حجر نيزكي مقدس يمثل بعل حمص إله الشمس الذي عبده، أصبح معبد الحجر الأسود كنيسة فيما بعد وحولت إلى جامع في العهد الإسلامي، وهو الجامع الكبير بعد ثورة حمص ضد مظالم العباسيين عام ٨٥٥م (الميثولوجيا السورية- أساطير آرام، د. وديع بشور، مؤسسة الفكر للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، تشرين الثاني ١٩٨١، ص ١٩٢)، يذهب البعض إلى أن معبد حجر حمص أقيم مكانه مسجد يعرف "جامع أبي لبادة وقبل المسجد كان كنيسة، ويرى البعض الآخر أن المعبد يقوم فوق قلعة حمص نفسها. والاسم السامي للحجر الأسود هو "لبيتيل BETYLE" ويعني بيت الإله (بيت إيل) ويعني صنماً أو نصيباً من حجر يسكنه الإله ويرمز له".

(١٤٩) دين الإنسان، مرجع سابق، ص ٩٨

(١٥٠) فراس سواح، مرجع سابق، ص ٩٩

سمعان المتبالة لأجل المسيح^(١٥١)

لم تدخل النصرانية إلى حمص، وتتغلب على الوثنية التي كانت عريقة بين أهلها، إلا في القرن الثالث الميلادي وما بعده، على يد القديس (سيلوانس) الذي عد أول أساقفها^(١٥٢).

وها هنا قصة تبرهن على مكانة حمص الدينية، تثبت ما افترضناه سابقاً من أن "الحمق" أو "التبالة"، كان طريقة صوفية يستخدمها الزهاد و الناسكين ليتقربوا إلى الله ولكن هذه المرة في الديانة المسيحية وليست الوثنية.

والراهب المتسك سمعان الذي نحن بصدده، كان منهم. فقد اتبع هذا الراهب طريقة غريبة في العبادة اعتمدت على التظاهر بالجنون والبلاهة وكانت المدينة التي اختارها لذلك هي مدينة حمص. أما لماذا فعل ذلك؟ فإن سيرة حياته تقدم لنا الإجابة، سيما أن لهذا الراهب فلسفة خاصة "بالتبالة".

ولد سمعان في مدينة الرها، من أعمال سوريا الشمالية، في أوائل القرن السادس للمسيح، وكان أبواه من ذوي المكانة العالية والغنى الوافر. وقد عُني بتثقيف ولدهما على الأخلاق العالية وعلما العلوم العصرية، فأضحى من الشباب الذين يشار إليهم بالبنان. ولما بدأ يستقل بحياته، ذهب مع قافلة من أبناء وطنه، يريد زيارة الأماكن المقدسة وحضور عيد رفع الصليب في أورشليم. ورافقه برحلته صديق له يدعى يوحنا. ثم قصدا البراري الأردنية، حيث كانت الحياة الرهبانية زاهرة فيها، وزارا أديرة عديدة، ولما عزموا على خدمة الله طرقا باب دير القديس جراسمس بقرب الأردن، وخلال إقامتهما فيه كانا مثلاً حياً للطاعة، والتواضع، والتجرد، وإماتة الحواس، وكثرة الصيام والمواظبة على التأمل والصلاة. بعد ذلك تركا الدير برضى مرشدهما ورئيسهما، وعاشا عيشة النساك المتوحدين في جوار البحر الميت، وكانا يفتاتان على الحشائش التي تنبت في تلك الأراضي الكبريتية، ويقضيان

(١٥١) القصة كما وردت في كتاب السنكسار: سير القديسين - المطران ميخائيل عساف-ج-٢- يوم ٢١ تموز.

(١٥٢) جولة أثرية، مرجع سابق ٣١٩

الأيام ومعظم الليالي يتعبدان، وظلا على هذه الحال طيلة تسع وعشرين سنة، إلى أن "قضت الحكمة الإلهية بأن يفترقا"، فظل يوحنا في القفار متعبداً إلى أن مات. وعاد سمعان إلى "ضوضاء العالم وجلبة المدن الصاخبة" فاختار مدينة حمص "الجميلة الكبيرة، الكثيرة الخيرات والشور والبركات معاً" ليقيم بها.

فلسفة سمعان

حماية للإرث الذي حصله، ولأنه عرف مسبقاً كيف سيتلقى الناس إنساناً اكتمل في "القداسة والعلوم الروحية فوق ما كان عليه من الثقافة العالمية"، خاف سمعان على ضياع ما كان قد اكتسبه بشق النفس في حياة القفر من فضيلة التواضع، فأراد أن لا يذهب ذلك الكنز الروحي هباءً منثوراً أمام إكرام الناس له وإعجابهم بعبادته وصيامه وسعة معارفه. فتظاهر بالبله، وأخذ يأتي أمور غريبة مضحكة جعلت الناس تشفق عليه، وترثي لضعف عقله، وتنسب ما تراه فيه من طرق العبادة إلى نقص في مداركه. فأخذ يطوف في الأزقة ويرتاد الشوارع، وهو يركض ويرقص ويصيح ويقهقه، حتى ثبت لدى الجميع أن هذا الراهب شارذ العقل مأخوذ بخيالات غريبة، لكنه كان عندما يختلي بنفسه يقضي الليالي ساجداً متعبداً زاهداً، "فشرفه الله بصنع العجائب والنبوءة" لدرجة أنه تبتأ بزلزال سنة ٥٥٠م... وتبتأ أيضاً بالطاعون الذي فتك بمدينة حمص...

اعتاد الناس حركات هذا "الأبله"، فكانوا يعتقدون أن "ما يأتيه من معجزات إنما كانت تحدث بطريق الاتفاق، فالله كان يمنح المؤمنين بعض النعم بواسطة ذلك الأبله، وجنون سمعان المستعذب الخفيف الظل كان يشفع فيه لدى العلي ويجعله صاحب كرامة لديه".

"عاش هذا البار رسولاً كريماً محباً خدوماً، معدوداً بين الناس أبله، وذلك كله لأجل المسيح، ليكسر عنفوان الكبرياء ويبيد في قلبه كل عاطفة تسعى وراء الشهرة والمجد الباطل... فما يمنحه الناس من المجد لهو حقير ذليل زائل مثلهم، أما المجد الذي يأتي من عند الله فهو المجد الحقيقي"

وهكذا عُرف سمعان في مدينة حمص "بالرجل الأبله"، ولم يكن أحد عالمًا بأمره سوى يوحنا شماس كنيسة حمص الذي استحلفه أن لا يبوح بشيء لأحد ما دام هو على قيد الحياة. وبعد وفاة هذا الراهب أعلن يوحنا حقيقة "تلك القداسة المستترة تحت برقع البله والجنون، فأتى الناس من كل حذب وصوب إلى كوخه للتبرك من رفات ذلك "القديس المجيد".

ثم "توسع انتشار هذه العبادة إلى أوروبا. وفي روسيا وجد مجموعة من الناسكين أطلقوا على أنفسهم اسم المجانين من أجل المسيح وبقيت لما قبل الثورة الروسية بقليل... ألم يكن الحمصيون أول من اقتدى بذلك الراهب!، إذ لا بد أنهم كانوا أول من مارس تلك الطريقة في العبادة، ثم نشروها في العالم"^(١٥٣).

(١٥٣) محاضرة بعنوان حمص، ويوم الأربعاء، ألقاها الأستاذ نهاد سمعان، في المركز الثقافي بحمص تاريخ ٢٠٠٢/٢/٦

حمص "كعبة" اللهو

تميزت حمص عبر تاريخها بالكثير من التناقض ليس فقط على صعيد المعتقد الذي دانوا به إنما على صعيد الشخصيات التي عاشت بها فقد سكنها النساك والمتصوفة، ومنها خرج حقوقيون كبار أمثال بابنيان، كما سكنها أبقرراط أبو الطب "وكان رجلاً إلهياً يداوي المرضى مجاناً"^(١٥٤) وفيها عاش الشاعر ديك الجن الحمصي أستاذ أبو تمام... إلخ، كل ذلك يبقى ضمن إطار الممكن أما أن تكون حمص كعبة للهو والمجون، فهذا أمر جديد يحتاج إلى التدقيق فيه، سيما أن لهذا الأمر أساس يدعمه الماضي القريب جداً، فمن المشاهد المألوفة في مدينة حمص منذ زمن بعيد وحتى أيامنا هذه "مشهد السكرى العائدين من منتزه الميماس بعد منتصف الليل، وهم يغنون ويطربون حتى دخولهم المدينة"^(١٥٥). فالخمرة ساهمت بمساعدة طبيعة حمص الخلافة، في ذلك الوقت طبعاً، على تليين طباع أهل المدينة وجعلتهم "أخف الناس أرواحاً وأطبعهم نوادر وأحملهم للمزاح" مهما كان غليظاً. وهذا ما تخبرنا به كتب التاريخ والأدب. ففي الفصل الثاني من كتاب المستطرف من كل فن مستظرف يصف الأبشيهي الأنهار والينابيع، يقول: "أن نهر العاصي يقوم بأرض حماة وقيل بحمص وهو نهر معروف، وفيه يقول بعضهم:

مدينة حمص كعبة القصف^(١٥٦) أصبحت يطوف بها الداني ويسعى لها القاضي
بها روضة من حسنها سندسية تعلق في أكناف أذيالها العاصي"^(١٥٧)

و يروي ياقوت الحموي في معجمه حادثة عن أبي نواس أشهر ماجني العصر العباسي أنه لما انصرف من مصر اجتاز بحمص "فرأى كثرة خماريها وشهرة

(١٥٤) تاريخ مختصر الدول، بابن العبري، المتوفى سنة ٦٨٥هـ، ص ٥٠

(١٥٥) ديوان ديك الجن الحمصي، جمع وتحقيق مظهر الحجى، وزارة الثقافة، ص ٨

(١٥٦) القصف: بحسب لسان العرب لابن منظور، هو اللهو واللعب، وهو الجلبة والإعلان باللهو.

(١٥٧) الأبشيهي (٧٩٠-٨٥٠ هـ)، المستظرف من كل فن مستظرف، دار إحياء التراث، ج ٢، ص ١٥٧

الشراب بها وترك كتمان الشاربين لها شربها فأعجبه ذلك فأقام بها مدة مغتبقا ومصطبحا، وكان بها خمار يهودي يقال له لاوى فقال لأبي نواس: كيف رأيت مدينتنا هذه وحالنا فيها، فقال له: حدثنا جماعة من رواتنا أن هذه هي الأرض المقدسة التي كتبها الله تعالى لبني إسرائيل، فقال له الخمار: أيما أفضل عندك هذه الأرض أم قطربل^(١٥٨) فقال لولا صفاء شراب قطربل وركوبها كاهل دجلة ما كانت إلا بمنزلة حانة من حاناتها^(١٥٩)..

ويصف الطبيب ميخائيل مشاققة الدمشقي (١٨٨٨م)، الذي رافق إبراهيم باشا في فتوحاته للبلاد السورية، حال مدينة حمص في تلك الفترة فيقول أن: "أهالي المدينة نحو عشرين ألف نسمة ثلثهم نصارى والباقي

من المسلمين. ولم أرَ فيها نصرانياً غير مولع بالسكر"^(١٦٠).

مجربي الخمر يعرفون تماماً أن حالة الانتشاء الروحي التي ترافق تناول الخمر تجعل أغلب شاربها يقومون بحركات غير مألوفة، ويتكلمون بطريقة لا ترابط فيها، فكيف سيكون منظر مدينة فيها سبعة آلاف "سكير"!!! استناداً لإحصاء الدمشقي.

ما دفعنا لإثارة هذه النقطة، هو أن تصرفات "السكران" قريبة من تصرفات "المجذوب الصوفي". الغارق في نشوة روحية خلال اعتاقه عن العالم المادي بعد أن يحتسي "الخمرة الصوفية".

فالخمرة وما ترمز، إليه من نشوة وتحليق روحي- بدلالة اسمها "مشروبات روحية"-، كانت عادة مرافقة للعبادات الوثنية، أي كان "المؤمنون" يستعينون بها لتعميق حالة النشوة، ثم أصبحت رمزاً للتوحد مع الآخر في طقس "أكل جسد الإله ودمه" التي يرمز لها (الخبز والخمر) أو ما يسمى في المسيحية بطقس "المنالوة".

(١٥٨) وقطربل كما يعرفها ياقوت: "كلمة أعجمية وهي اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر وما زالت متنزها للبطالين وحانة للخمارين وقد أكثر الشعراء من ذكرها"

(١٥٩) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج٤، ص٤٢٢

(١٦٠) تاريخ حمص لمنير أسعد، ص٢٨٦

وفيما بعد ولا سيما في الإسلام تم فصل الخمرة بشكل تدريجي عن كونها عنصر مشارك في طقس العبادة وتجلى ذلك في الآية (٤٣) من سورة النساء "ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون" وفي هذه الآية تأكيد على إلغاء حالة "الهذيان والنشوة" بالاستعانة بالمشروبات أو المخدرات التي رافقت العبادات القديمة ولكن هذه النشوة وجدت لها طريقاً جديداً من خلال التصوف المسيحي ومن ثم الإسلامي. وهكذا انفصلت الخمرة عن الطقس العبادي، وأصبح كل منهما يحقق النشوة والتخليق الروحي و الانعتاق عن العالم المحيط بطريقته الخاصة.

بالإضافة لما سبق فقد انتشر في حمص سابقاً الكثير من المغارات التي يلتقي فيها الحشاشون، ويذكر عجائز حمص ما كان يجري في هذه المغارات من تبادل الطُرف والنوادر لإثارة الضحك الذي يزيد تدخين "الحشيشة" من شدته. وباعتقادي ربما كان أحد عوامل إطلاق صفة "الحمق" و بشكل أدق "الجذبة" على أهل حمص كثرة انتشار الخمر وتدخين الحشيشة، الأمر الذي كان له دوراً مهماً في تحول النكتة من سلاح لصراع العصبية العربية إلى طبيعتها الهزلية - التسلوية على يد هؤلاء السكرجية، والحشاشين.

مدخل إلى عالم الضحك

" طوبى لأصحاب النكتة والظرف والروح المرحة فإن لهم ملكوت الصالونات"

من الملح الطريفة التي رواها البعض زمن إبراهيم باشا، التي تبرز نباهة أحد أبناء حمص، أنه لما أراد بناء الثكنة العسكرية (هدمت في أربعينيات القرن الماضي) اشترط على الملتزمين أن يتكفلوا بثباتها على عواصف الدهر ألف سنة، ولم يجسر على ذلك إلا رجل واحد اسمه بطرس خزام، فلامه أصدقائه على هذه المغامرة ضحك بطرس منهم قائلًا: إن وجدني الباشا أو وجد نفسه بعد ألف سنة على قيد الحياة فليفعل بي ما يشاء^(١٦١).

لم تعمل نزاعات العصبية العربية إلى إلحاق الأذى الجسدية في الخصم وإنما عملت على إلحاق الأذى "المعنوية" به ولنا في قصص الهجائيين العرب خير مثال على ذلك ألم ينتحر الراعي النميري لهجاء جرير له. وعليه فالنكتة الحمصية التي ترعرعت في كنف ما يمكن تسميته الهجاء القصصي ليست إلا سلاح نفسي حديث موجه للخصم، ميدانها "الذات" البشرية.

قالوا "إن نزول ماجن ببلدة أجدى على الصحة العامة من عشرين حملاً من الأدوية"^(١٦٢). كان الإنسان البدائي يفكر بغريزته ويطور عقله، أما اليوم فهو يفكر بعقله لإرواء غريزته.

فالقرن الحالي يؤذن "بعصر من الكآبة" تماماً كما كان القرن العشرين عصر "التوتر والقلق"، "وتبين المعطيات الدولية أن الاكتئاب سوف يكون على ما يبدو وباء عصرياً، ينتشر جنباً إلى جنب في كل أنحاء العالم مع انتشار أساليب الحياة الحديثة... وباعتنا على الشلل والغم والحسرة، وفقدان الأمل"^(١٦٣). وعليه يبدو

(١٦١) تاريخ حمص، مصدر سابق، ص ٣٨٦، ٣٧٦

(١٦٢) موسوعة الأدب الضاحك، حسين مروّج، ص ٢٠

(١٦٣) الذكاء العاطفي، دانييل جولمان، ترجمة ليلى الجبالي، ص ٣٣١

أن الضحك سيوضع متاحف التاريخ في مرحلة ليست بعيدة. إذ أن معدل الكآبة يزداد طرداً مع "عصرنة" الحياة .

يقول أحمد أمين: " لو انصف الناس لاستغنوا عن ثلاثة أرباع ما في الصيدليات بالضحك... لأن الضحكة علاج الطبيعة والأسبرين وما إليه علاج الإنسان. والطبيعة أمهر علاجاً وأصدق نظراً وأكثر حنكة " ... فالضحك بلسم الهموم ومرهم الأحزان"^(١٦٤).

فَهَمَ الحمصي بمرونة شخصيته، وشمولية طبعه، معنى الضحك، فسخر النكته -أفضل طرق الضحك- لخدمته، والحمصي لم يقتصر على إطلاق النكات على نفسه، وإنما يحاول أن ينسب العديد من النكات الطريفة إليه.

(١٦٤) مصدر سابق، ص ١٩

في منشأ الضحك

" قل لي مما تضحك أقول لك من أنت "

مارسيل بانيول

نستقبل الحياة بصرخة، وكأننا نعرف ما ينتظرنا، إنها " صدمة الولادة " (١٦٥) وخروجنا من جو الأمان، والهدوء والاطمئنان، إلى حياة الضجيج والتلوث، والبحث عن " الفردوس المفقود".

منذ اللحظة الأولى لولادة الإنسان يصرخ خشية من العزلة والانفصال بعد حياة التوحد مع أمه لذلك يستخدم العديد من الأسلحة في معركة "الصراع من أجل البقاء" على الصعيد النفسي أهمها "البكاء، الضحك، الابتسام" لضعف مَلَكَاتِهِ التعبيرية الأخرى، وكأنه يوصل رسالة لأقرانه والمحيطين به تقول " لا تتركوني أنا متفاعل معكم" أو "لست متفاعلاً معكم".

ولمعرفة هذه الأسلحة، لا بد في البداية من إعطاء لمحة عامة عنها، وتفكيك عناصرها وإظهار التداخل فيما بينها.

نعرف أن حديثي الولادة يصرخون لكنهم لا يبكون فقد "أظهرت دراسات شملت ١٢٥٠ وليداً أن ١٣٪ منهم قادرين على البكاء خلال الخمسة أيام الأولى من الولادة والغالبية بعد ثلاثة أسابيع، وبعضهم لم يبك إلا بعد الولادة بأربع أو خمسة أشهر". " إن الصراخ على ما يبدو هو رد فعل سابق للظهور على البكاء". (١٦٦)

(١٦٥) قال بهذا المصطلح المحلل النفسي أوتورانك (١٨٨٤-١٩٣٣)، من رواد مدرسة التحليل النفسي كان من المنشقين عن فرويد في حياته معتبراً أن العُصاب بكل أشكاله المتنوعة جداً، ليس سوى تكرار (إعادة إنتاج) لصدمة الولادة (انفصال الطفل عن أمه التي هي موضوع التثبيت البدئي الذي يؤلف الحادث البيوسيكولوجي للا شعورنا) و مفعولاتها. عن كتاب مدارس التحليل النفسي، ترجمة وجيه أسعد، إصدارات وزارة الثقافة

(١٦٦) ديزموند موريس، الطفل الرضيع، ترجمة محمد دنيا

فمن الناحية النفسية يرى الباحث الفرنسي ديزموند موريس أن "الرضيع يسعى إلى إسالة الدموع على خديه ليثير لدى أمه رغبة لا تقاوم في تخفيف دموعه ومسح خديه، ومن شأن هذا التفاعل أن يجعل الأم قريبة منه وعلى تماس وثيق به" أما بالنسبة للكبار، فإن البكاء يفيد بدموعه الغزيرة في كونه وسيلة لإفراغ العناصر الكيميائية التي تسبب الانفعال الشديد، كي يعيد التوازن الكيميائي للجسم إلى حالته المعتادة" (١٦٧).

ويبدو أن فعل الضحك تطور من فعل البكاء، إذ يبدأ الطفل بالضحك عندما "يستطيع تمييز أمه" (١٦٨) وذلك بين الشهر الرابع والخامس، وبالتالي يصبح الضحك لغة تجمع الأم بطفلها ويغدو رسالة اطمئنان من قبل الطفل ورضى عما يجري حوله.

ثم يصبح الضحك مع صنوه البكاء لغة التفاعل الاجتماعي لأن وسائل التعبير الكلامية والذهنية لا تكون قد اكتملت عند الطفل بعد، فما زالت الأمور خاضعة "لمبدأ اللذة" (١٦٩) ومن المؤشرات الهامة للتعبير عن هذا المبدأ هو الضحك، أما "عدم اللذة" فمن المؤشرات الهامة للتعبير عنه البكاء، ويكون الابتسام تعبيراً عن "مبدأ الواقع" (١٧٠) وكون التعبيرات الفيزيولوجية لانطلاق الضحك والبكاء متداخلة في

(١٦٧) المصدر السابق، ص ٦٢

(١٦٨) ديزموند موريس، القرد العاري، ترجمة ميشيل أزرق، ص ٩٩

(١٦٩) يقول فرويد: (من المسلم به في نظريات التحليل النفسي أن سير العمليات النفسية ينتظم انتظاماً آلياً وفق "مبدأ اللذة"، ونحن نذهب في عبارة أخرى، إلى أن ما تبدأ منه أية عملية نفسية، مهما اختلفت الظروف، إنما هي حال من التوتر الكريه المؤلم، ومن ثم تتخذ لنفسها تلك العملية سبيلاً يؤدي آخر الأمر إلى نقص هذا التوتر والتخفيف منه، أي إلى تجنب "عدم اللذة" والحصول على اللذة") (ما فوق مبدأ اللذة، سيجموند فرويد، دار المعارف بمصر، ص ٢٣)

(١٧٠) مبدأ الواقع قال به فرويد، وهو ميل الجهاز النفسي إلى تقييد الإشباع المباشر للغرائز البدائية، ولكنه "يهدف للحصول على اللذة آخر الأمر، غير أنه يدفع بالمرء إلى تأجيل الإشباع، وإلى التخلي عن كثير من الأمور التي تتيح ذلك أو تؤدي إليه، بل ويدفع به إلى تقبل عدم اللذة قبلاً مؤقتاً خلال السير في ذلك الطريق الملتوي الطويل الذي ينتهي به إلى الظفر باللذة" (ما فوق مبدأ اللذة، مصدر سابق، ص ٢٨)

الابتسام، يصعب على الإنسان أثناء الصراع بين مبدأي اللذة والألم تحديد الاتجاه الذي يجب أن يسلكه لأن مبدأ الواقع (وتعبيره الابتسام) يفرض سلوكية معينة أو "يؤجل إشباع اللذة" وتجنب عدم اللذة (الألم).

لذلك نحن نبادر في المواقف الاجتماعية الجديدة ضمن "مبدأ الواقع" بابتسام، فعند تعرفنا على شخص نبادره بابتسامه وشخص لا نحبه مفروض علينا السلام عليه نرمي له ابتسامه كتحية غامضة المعاني. فهي إذاً تعبير عن مبدأ الواقع، لأن الواقع فيه ظروف مجتمعية وقيود أخلاقية مطلوب منا أن نراعيها. "فإن حينئذ شخصاً بابتسامه فإنه يعلم أننا مترددون نحوه ولكن إن حينئذ بضحكة فله الحق عندئذ أن يشك في سلوكنا تجاهه"^(١٧١)، ف"البسمة دهليز الصلات الإنسانية"^(١٧٢)، وكما أن الواقع متلون كذلك تلونت الابتسامه بألوانه فهناك الابتسامه الصفراء: الخالية من المعنى، وابتسامه المسايرة: تشعر الآخر بأنك مطمئن له مع أن موقفك قد يكون العكس، ابتسامه الفرح، ابتسامه الألم، ابتسامه الإغراء: يستخدمها رجل أو امرأة طلباً لعلاقة عاطفية ما.

من جانب آخر يتداخل الضحك بالبكاء في بعض المواقف، على حد قول المثل "من وهج القفص غنى ورقص" أو شر البلية ما يضحك" وقد يضحك الإنسان حتى تسيل دموعه، أليس "ذروة البكاء والضحك دموعاً".

ولكن ما علاقة ذلك كله بالنكتة ؟

يقول بوعلی یاسین: "عندما يسخر شعبٌ ما من شعب آخر أو يتهكم عليه، فهو يفعل ذلك ليس بالضرورة لعداوة بينهما، ولا بالضرورة حتى لتنافسهما على مصلحة ما، بل على الأرجح تأكيداً للذات وإثباتاً للوجود. هناك إذن ثلاث مستويات من دواعي الضحك على الجماعات الأخرى: الداعي الأول هو العداوة، والثاني هو التنافس، الداعي الثالث والأعم موجود في الذات (ال"نحن") أكثر مما هو موجود في

(١٧١) القرد العاري، مصدر سابق، ص ١٠٤

(١٧٢) د. عادل العوا، أخلاق التهكم، ص ١١

الغير..."^(١٧٣). ويرى برغسون أن للضحك عموماً مهمة اجتماعية تقوم على القصص والتقويم، فهو نوع من التأديب، لأننا حين نضحك من المقصر أو الشاذ أو الغبي، إنما نُؤذيه بصورة غير مباشرة...^(١٧٤) ونحذره من أنه إذا كرر سلوكه فإنه سيجلب له سخرية الآخرين.

نعرف أن وسيلة التعبير للتفاعل مع النكتة كما هو شائع^(١٧٥) هي الضحك، فإذا لم يرد المتلقي على رسالة النكتة بالضحك فليس هناك نكتة ؟ إذاً فمفهوم النكتة يختلف من مجتمع لآخر، تبعاً لمبدأ الواقع لديه من جهة ومستوى ثقافته وانفتاحه على الآخر بعاداته وتقاليده من جهة أخرى ليستطيع التفاعل معها أو بمعنى آخر حتى يستطيع قراءة النكتة من حيث الظروف السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية التي أوجدتها، فما يعتبره شخص نكتة يمكن أن يعتبره آخر ثرثرة.

فالنكتة هي بنت البيئة التي أوجدتها. وبالتالي تختلف طبيعة النكتة، وآلية تلقيها، من مجتمع لآخر، وبيئة وأخرى، وحتى من حي لآخر، ومن شخص وآخر.

وكون النكتة متغيرة ومتبدلة، فهذا يخضع لمبدأ اللذة والألم الذي تحققه النكتة في ضوء معطيات مبدأ الواقع، فالنكتة ذات الإيحاءات الجنسية أو الجنسية الخالصة وعلى الرغم من أنها الأكثر تداولاً، لأنها إحدى حالات التصريف للكبت الجنسي، نجد أن هناك مجتمعات وحتى أشخاصاً يرفضون مجرد الاستماع لها، وبالمحصلة هي لا تُقال إلا أمام الأصدقاء المقربين. والتفاعل مع النكتة هو أحد المؤشرات الهامة لرصد المزاج العام السائد، فعلى صعيد النكتة السياسية، التي نعرف من خلالها تقبل الناس للأوضاع السياسية، نلاحظ البعض يُلقي النكت على إحدى الشخصيات السياسية غير "المؤذية" أو أحد الوزراء أو حتى رئيس البلد، وفق مبدأ اللذة.

(١٧٣) بيان الحد بين الهزل والجد، ص ٢١١

(١٧٤) أدبنا الضاحك، عبد الغني العطري، ص ١٥-١٦-١٨

(١٧٥) سنثبت لاحقاً أن الامتعاض والحزن هو أيضاً وسيلة تعبير عن التفاعل مع النكتة

وكلما زادت أهمية الشخصية التي تكون الهدف من النكتة استطعنا التعرف على مدى رضى الشارع عن هذه الشخصية أو الواقع الذي تمثله والحالة التي تعبر عنها، وذلك من خلال تحليل النكتة. مثلاً: من النكت التي ظهرت بعد إقالة إحدى الحكومات العربية هذه النكتة الذكية للماحة التي نتعرف من خلالها على مستوى أداء هذه الحكومة، تقول النكتة: " أنه بعد أن تحقق لرئيس وزراء تلك الحكومة كل ما يحتاج إليه من ثروة ومال وسلطة، بدأ يعتريه شعور أنه سيصبح نبياً، وفيما هو سائر يفكر بهذا الأمر، شعر بحاجة ماسة للتبول، فقصده إحدى الزوايا وبينما هو يتبول، بادره رجل بقوله: اقرأ، فظن أن النبوة في طريقها إليه، أجابه: لست بقارئ، فقال له: اقرأ، أجابه: لست بقارئ، قال له الرجل الذي أصبح خلفه بعد أن ضربه على قفاه: اقرأ لا تبول على الحائط يا حمار".

وحال النكتة السياسية التي تمس نظاماً سياسياً دكتاتورياً أنها تُلقى وتسمع ويتم التفاعل معها تبعاً للوسط العام الذي ترمى فيه، فيمكن أن تسفر عن ضحك يصل لحد الهستريا إذا أُلقيت في جو يسوده الاطمئنان (وسط الأهل مثلاً)، وينطوي على ابتسام إذا كان شعور الخوف وعدم الارتياح هو المسيطر، وفي حال لم يرتح الشخص للجو العام الذي يحيط بالنكتة يتظاهر باللامبالاة أو عدم فهم النكتة... ومهمٌ أخيراً أن نميز بين الضحكة الصفراء أو السوداء، التي دافعها الانتقام، والضحكة العادية أو البيضاء في الهدف التريوي للنكتة". أو كما يقول / مارسيل بانيول/: التمييز بين الضحك الإيجابي الحقيقي المنعش والضحك السلبي بهدف الاحتقار أو الازدراء، أو الانتقام أو التشفى"^(١٧٦).

ويمكننا القول أننا عندما نضحك على النكت السياسية أو الجنسية أو الاجتماعية، فإننا نضحك على عاداتنا وتقاليدينا وبخاصة البالية منها، أو نضحك على ما فرض علينا من أفكار وسلوك ومعتقدات سياسية ودينية، بالرغم من أننا نخشى لوم الآخرين لنا وسخرتهم منا عندما نطير "خارج السرب"، ويُفهم قول أفلاطون من "أننا نضحك من تعاسة الآخرين" ضمن هذا الإطار، في حين إننا نضحك

(١٧٦) النكتة الصهيونية، محمد أبو خضور، ص ٢٠

من تعاستنا نتيجة ما فرض علينا. وعليه فالضحك يتيح لنا فرصة للتصالح مع أنفسنا، لذلك نستخدم الأحقق وسيلة ننتقد من خلالها تلك "التابوات/ المحرمات". فالأحمق لا يلومه أحد، وحتى القانون الحديث لا يحاسبه على تصرفاته. ففي أمس نعت الحمصي بالأحمق لأسباب سياسية ودينية، واليوم بقي الأحمق الحمصي رمزياً وسيلة لتميرير الكثير مما نخشى أن نقوله بشكل مباشر، ويبدو أنه سيستمر على هذه الحال حتى يدخل في النهاية- بشيء من الشطحات الحمصية- في تركيبة اللاوعي المحلية لأهل المنطقة والدول المحيطة .

حول النكتة

يعرف بو علي ياسين النكتة بأنها: "حديث بين طرفين متنافرين، ينتقل فجأة من الطرف المألوف أو الاعتيادي إلى طرف استثنائي مجهول غير متوقع، فيحدث في المتلقي وعياً مضحكاً بالمفارقة من خلال المتعة التعويضية التي تمنحها له"^(١٧٧) ويضيف " النكتة تقدم متعة تعويضية بما يناسب المتلقي"^(١٧٨). ومن الضروري التفريق بين عدوانية النكتة و تربويتها فهي بخصوص الأفراد تربوية أكثر مما هي عدوانية وهي بالنسبة للجماعات عدوانية لا تربوية على الأغلب^(١٧٩). وكان كارل ماركس يشجع النقد الاجتماعي الساخر ويقول يعالج الإنسان نواقصه عندما يسخر منها.^(١٨٠) أما برغسون فيؤكد على "عنصر المفارقة" للنكتة ويعتبر أن النكتة "عدوانية في جوهرها".

ويرى فرويد الذي يركز على "عنصر اللذة (المتعة) في النكتة" أن في تقنيات النكتة بحد ذاتها منابع للذة تتحدر من لذة اللعب بالألفاظ والأفكار"^(١٨١). لذلك ينبغي أن ينطوي موضوع النكتة على كثير من الأهمية بالنسبة للمتحدث والمستمع، لأن النكتة تشكل بالأصل هروباً من مواجهة الواقع (أو إنكار الواقع بتعبير فرويد). ومن ناحية أخرى فهي تهدئ التوترات الانفعالية، القائمة بإتاحتها إفراغاً لفظياً يحقق التنفيس وإشباع المطالب اللاشعورية، (وهنا بتعبير فرويد يمكن أن تنطلق من عنصر عدواني)^(١٨٢).

(١٧٧) بيان الحد بين الهزل والجد، ص ٥١

(١٧٨) سابق، ص ٥٤

(١٧٩) مصدر سابق، ص ١٦٤

(١٨٠) الفكاهة البلغارية داميان بارنيا كوف، ص ٨

(١٨١) سابق، ص ٤٦

(١٨٢) النكتة الصهيونية، ص ٤٤

وعليه تشكل النكته في جوهرها هروباً من الواقع تحقيقاً لمطالب لا شعورية تُفَرِّغ لفظياً من خلال لذة اللعب بالألفاظ والأفكار تعبيراً عن دوافع عدوانية في جوهرها، تتيح لها النكته صماماً للتفيس والانتقام بغية إحراز متعة تعويضية تناسب المتلقي.

وإذا حاولنا تفكيك النكته إلى عناصرها، نلاحظ أنها تتألف من ثلاث عناصر:

مبدع النكته "الرامي": يؤلفها لتحقيق غاية من ورائها.

الشخصية الثانية "المستهدف": وتدور حولها النكته. وهذه الشخصية يمكن أن تتجسد في أشخاص وهميين كشخصية جحا في الأدب العربي، أو من الواقع كشخصية الأجدب الحمصي، أو من الواقع ولكن يُرمز لها، مثل شخصية الأحمق إيفان للدلالة على أهالي غابروفو المستهدفين بالنكت في بلغاريا...، أو تتجسد في مفاهيم مثلاً: للاشتراكية خمس علامات تدل عليها، لا أحد يعمل إنما الخطة تتحقق، الخطة تتحقق لكن لا شيء في السوق، لا شيء في السوق لكن البيوت تتمون، البيوت ممونة لكن الناس غير مبسوطة، الناس غير مبسوطة لكن الكل يقول نعم^(١٨٣).

الشخصية الثالثة "الهدف": أو متلقي النكته الذي يريد /الرامي/ أن يؤثر في وعيه. ليقدم له شيئاً جديداً أو يدعم ما عنده من قناعات أو ربما ليزعزع فيه قيمة دون أن يقدم قيمة جديدة. فالشخصية الثالثة مستهدفة هي الأخرى لكن بصورة غير مباشرة. كما يقول بوعلي ياسين.

استطاع الحمصي أن يكون كل ذلك. فميزة أهل حمص أنهم وفي كثير من الأحيان هم الرماة: وبسرعة بديهية فائقة، لنتذكر أحداث كوسوفو، عندما خرج أهل حمص بنكته تقول: "أن شركة ألبان حمص تضامنت مع ألبان كوسوفو". ونكته ظهرت أثناء التوتر الذي ساد العلاقات السورية التركية أواخر التسعينات

(١٨٣) بيان الحد بين الهزل والجد، مصدر سابق، ص ١٥٤

تقول: "أعلن محافظ حمص مهدداً تركيا بأن أي اعتداء على سوريا هو اعتداء على حمص. ونكتة خلال حملة رسمية على الفساد في سورية في العام ٢٠٠٤ تقول إن موظفاً دخل إلى مكتب أحد المتفذين، وقال له: أنت حمار، فجن جنون المسؤول وأبى إلا أن يسجنه خمس سنوات، وبعد أن استشار عدداً كبيراً من المحامين وجد أن السب والتشهير حكمها بين ٣-٦ أشهر، وعندما يئس أناه محام حمصي وقال له: أنا من سيسجنه خمس سنوات، ولكن أعد علي ما قاله لك، أجاب قال لي أنني حمار. وفي اليوم الثاني سمع المسؤول: أن الموظف حكم عليه خمس سنوات وست أشهر، وعندما حضر المحامي الحمصي، قال له المسؤول فرحاً: كيف فعلت ذلك، أجاب بسيطة يا سيدنا، ست أشهر سب وتشهير، وخمس سنوات كشف أسرار دولة. بالإضافة إلى أن الحمصي وعى صراع العصبية الدينية والسياسية وحاول استخدام نفس أسلحة خصومه وبالتالي أصبحوا يتتدرون على أنفسهم لإغاية خصومهم من جهة وإثبات عكس ما يدعون تماماً كما تغيظ الطفل المشاكس عندما تقلد حركاته.

و الملاحظ أنه في كل دولة في العالم مدينة تكون موضع تنكيت من قبل مدنها ففي تونس سوسة، غابروفو في بلغاريا، الصعيد في مصر، وفي اسكتلندا ابردين، وحمص في سوريا... الخ هذا على الصعيد الخارجي، أما الداخلي فضمن ما يسميه "بو علي ياسين" العصبية المحلية " نجد أن كل مدينتين يمكن أن تتبادلا الأقاويل فيما بينهما تصل إلى حد التجريح. من هنا نجد تنافس أهالي حلب والشام، والرقّة ودير الزور، واللاذقية و طرطوس. وفي مجال التنكيت كلهم يستهدفون الحمصي.

من هو الرامي أو مبدع النكتة أو صانع النكتة :

بالرغم من أن الرأي السائد يقول " أن صانع النكتة مجهول في كثير من الأحيان" إلا أنه في أغلب الأوقات هو المثقف الشعبي المهتم بالشأن العام، فالنكتة هي بنت محيطها، تفرزها ظروف سياسية، اقتصادية، اجتماعية وفقاً لمتطلبات المرحلة وهي بتعبيرها عن اللاشعور تشكل تفريراً هاماً للدوافع المكبوتة، وهنا

يمكن أن تكون النكتة أداة مهمة في يد الأجهزة الأمنية لتخفيف احتقان الشعب من قضية أو ظاهرة سلبية، طبعاً ليس بالضرورة القضاء على تلك الظاهرة وإنما مجرد الضحك منها وتغيير صورتها في عقولنا بتحويلها من موضوع جدي وخطير إلى قضية هزلية، ومثل تلك النكتة يتلذذ الناس بترديدها همساً.

ويمكن أن يكون الإعلام صانعاً لحدث يروى فيما بعد كنكتة على سبيل المثال: عندما فر نابليون من جزيرة ألبا سنة ١٨١٥ نشرت إحدى الصحف الباريسية أنباء فراره في مقالات كتبتها على عدة أيام، وصدرتها بالعناوين الآتية بترتيب الصدور، فرار الوحش الكورسيكي، وصول السفاح الأكبر إلى خليج جوان، المغتصب يدخل مدينة جرينوبل، بونابرت يقترب من مدينة ليون، نابليون يشق طريقه إلى فونتبلو، صاحب الجلالة الإمبراطور يصل غداً إلى باريس المخلصة^(١٨٤).

هناك عدة عوامل تزيد من فعالية انتشار النكتة أهمها الآنية التي يمكن الاستعاضة عنها في حال تشابه الظرف الاجتماعي الذي أفرزها، أو ظرفية مكانية وليست زمانية وهذا ما ساعد على تدويل النكتة وثالث هذه العوامل راوي النكتة الذي يزيد من جاذبية النكتة تحقيق الغاية المنشودة منها.

والغريب أنك تسمع الكثير من النكت المتشابهة، وكل بلد ينسبها على الأغلب إلى المدينة التي يطلق عليها النكت أو يُبقي بطلها مجهولاً.

المزاج الجمعي

وليس ببعيد أن يكون هناك مصدر واحد للنكت يشترك به البشر يُحور فيما بعد وفق حاجات كل منطقة وتعالج من خلال مزاجها الخاص وظروفها كالأساطير مثلاً، وليس ببعيد أنه كما قال يونغ باللاشعور الجمعي وأدوات التعبير عنه الأساطير والأحلام... إلخ، أن يكون هناك (المزاج الجمعي) وأدوات التعبير عنه على سبيل المثال، البكاء، الضحك، الابتسام، وحتى النوادر والنكت.. الخ.

(١٨٤) بيان الحد بين الهزل والجد، ص ١٦٠

وعليه- كما سبق وأشرنا- فمن شأن النكتة أن تقيس هذا المزاج الذي يتحكم بسلوك الإنسان، و يتحكم حتى بغريزته ذاتها، هذا افتراض يحتاج إلى جمع الكثير من نكت الشعوب وتحليلها والمقارنة فيما بينها، وإبراز أوجه الاشتراك والاختلاف والظرف الذي أوجد النكتة، والنكت التي تخص هذه المنطقة دون سواها، فقد تُطلق نكتة على حكومة في بلد معين، ويمكن أن تُردد في بلد آخر عندما تتوفر للنكتة الظروف الموضوعية التي أنتجت سابقتها. ويمكن أن يكون للمزاج الشعبي (نظراً لعلاقة النكتة به) موقف موحد عند بني البشر إزاء العديد من القضايا يؤدي إلى إطلاق نكتة متشابهة في أكثر من بلد وفي أوقات مختلفة بالرغم من عدم التواصل المباشر فيما بينهم وإنما من خلال التواصل غير المباشر وتحديدًا (المزاج الجمعي).

تعريف خاص للنكتة

النُّكْتَة، كما يشرحها معجم المنجد الأبيدي، هي مفرد نُكْت ونِكَات: النقطة السوداء في الأبيض أو البيضاء في السوداء/ الأثر الحاصل من نُكْت الأرض/ شبه الوسخ في المرأة والسيف ونحوهما/ المسألة الدقيقة أُخرجت بدقة نظر وإمعان فكر/ الجملة اللطيفة تؤثر في النفس انبساطاً.

من هذا الشرح يمكن أن نستنتج التعريف التالي:

النكتة هي جملة لطيفة يُخرجها المثقف الشعبي (حلقة الوصل بين المثقف النخبوي والشعب) ليبسط للعامة ما يجري من حولهم كطريقة لمساعدتهم في تكوين موقف إزاء هذا الحدث أو ذلك، حيث يُزيل هذا المثقف الشوائب التي علقَت بالأحداث والمواقف، ما يُحدث نُكْتاً (تغيير جذري) في الحالة المزاجية لمتلقي النكتة تؤثر في النفس انبساطاً. وعليه يمكن أن نسمي انقلاب الحالة المزاجية من حالة إيجابية إلى حالة سلبية نكتة، كما يمكن أن نسمي انقلاب الحالة المزاجية من حالة سلبية إلى حالة إيجابية نكتة.

لنطبق التعريف السابق على النكتة الحمضية:

النكته التي تروى أمام الحمصي من قبل المدن الأخرى هدفها أساساً (نُكْتُ المزاج) من حالة إيجابية للحمصي إلى حالة سلبية ومن حالة سلبية لمن يستمع للنكته من غير أهل حمص إلى حالة إيجابية.

نكته	رامي النكته	متلقي النكته	المُستهدف
ضحك	ضحك	امتعاض	

طبعاً مع العلم أن الأثر الذي كان مطلوب إحداثه كما هو واضح من مفهوم النكته السابق، تحول إلى جانبه الإيجابي من قبل متلقي النكته أي أهل حمص (باستثناءات قليلة) ورامي النكته وهو في أغلب الأحوال الحمصي نفسه لتصبح العلاقة كالتالي:

نكته	رامي النكته	متلقي النكته	المستهدف
ضحك	ضحك	ضحك	

لكن الأمر بالنسبة لمن ينكت مثلاً على أهل السويداء أو درعا... مختلف ويصح عليه الاستنتاج الأول بدرجة أكبر مما يصح على الحمصي لأن للبيئات المتنوعة التي عاش فيها الحمصي خصائص جعلت الأسلحة التي استخدمها خصومه غير فعالة، أقصد القصص والنوادر التي وردت في الأدب والتاريخ العربي وشكلت الأساس الذي بنيت عليه النكت على أهل حمص .

يقول إبراهيم عبد القادر المازني وهو "من أبرع كتاب العربية سخرية ونكته"، "تشعر بالنكته أنك أخذت ثأرك وشفيت نفسك وانتقمت من ظالمك أو خصمك بتحقيره أو تصغيره والإقلال من شأنه بين الناس" ويضيف "هناك غرض آخر تدركه بالنكته، وهو أن من تطلقها عليه، يكون قد أخفق، لأنك إذا استطعت أن تقابل عنته وجوره أو لؤمه بضحكة ساخرة، فكيف يمكن أن يقال أنه نالك بإساءة؟"^(١٨٥) المازني يتحدث هنا عن الدور التعويضي للنكته بأن تنتقم ممن لا نستطيع أن ننال منهم عن طريق الفعل، فننال منهم عن طريق التقليلات ومنها النكته.

(١٨٥) النكته العربية بين الماضي والحاضر، علي ديب حسن، ص ١٤٧

وجهات نظر حول النكتة الحمصية

حاول الرحالة والمؤرخ أحمد وصفي زكريا من خلال كتابه "جولة أثرية في بعض البلاد الشامية" تقديم تفسير لأخبار الجنون الحمصي التي عمت المعمورة يقول زكريا: "ما يثير الاستغراب أن خبر الخبل والحمق، اللذين وصف بهما ابن جوقل والمقدسي أهل حمص، في القرن السادس، كرره ياقوت في القرن السابع، وزاد عليه بصمات أخرى، حملته على ذكرهما بواعث نفسانية على ما نطن^(١٨٦).

ويضيف: سألت بعض فضلاء الحمصيين عن وصمة الحماقة فلم أجد من ينفع غلة إلا أن أحدهم أجابني، بما يلخص في: "أن الحمصيين كانوا في العصور الإسلامية الأولى ذوي أنفة وعصبية، جعلتهما يثبون مراراً ضد عمال الأمويين والعباسيين، فتأتتهم الجيوش للتأديب والتتكيل، فمن كثرة الضربات التي أنزلت بهم وشدتها، صار من يريد التخلص من تبعة هذه الفتن الموقدة، يتظاهر بالبله مدة مديدة، وتعدى هذا التظاهر بعد حين إلى الخلاف على البيوع والعقود وغيرها، يتوسل به من يريد الإيهام، ولما كثر عدد هؤلاء المتظاهرين، صار الغرياء يظنون شيوع ذلك في كافة أهل حمص، وتناقلت الألسن هذه الشائعة، ولم يعد في الإمكان التقاطها"

على أن أحسن من أجاب عن أسئلتني بين الحمصيين كان الخوري البعثة (عيسى أسعد) صاحب تاريخ حمص فقد قال ما خلاصته: "نتج خبر الحماقة والبلاهة على ما أظن، عن اشتها الحمصيين بإخلاصهم في معتقداتهم ومبادئهم، ويغلب على المخلص تطرفه في تأييد ما يرتئيه، لا تأخذه فيه هوادة، ولا يتبصر بالعاقبة، التي يحرص عليها السياسيون، فمن أمثلة إخلاص الحمصيين موقفهم مع الأمويين، تجاه

(١٨٦) جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، ص ٣٣٢

الإمام علي رضي الله عنه، والإخلاص الشديد الناتج عن طيب السريرة، يجعل المرء عرضة للانخداع، لذلك نسبت إليهم الغفلة عما لا يهمهم، فأرسل بعضهم كلمة في المعنى، تلقفها عنه سواه، فذهبت مثلاً^(١٨٧).

نظرية بو علي ياسين حول النكتة الحمصية:

"التكيت على "جذبان حمص" ظهر في الخمسينات، وكان متأثراً بالتنافس بين مدينتي حمص وحماة، في ذلك الوقت كانت الناس تتحدث عن عوران حماة تقريباً مثلما تتحدث عن جذبان حمص.. ومنذ بداية السبعينات كما أقدر، لم تعد تعبر عن التنافس التقليدي بين أهالي حمص وحماة، وإنما مجرد التسلية والمزاح، فعصبويتها تحولت مع الأيام إلى تهزيرية، ما يعني أن الدافع إليها كان في الأصل التفاخر على أهل حمص وبالتالي تأكيد الذات^(١٨٨)، ومن ناحية أخرى يبدو لي أن الناس تحتاج إلى شخصية نمطية، كي تنسب إليها نوعاً من الأفعال والأقوال، ومن الواضح أن شخصية التحامق وليس الأحمق أعجبت الناس، وهذه شخصية لا تخلو من الحكمة ولا تنفصل عن التاريخ، حاول البعض مع جحا، ثم نسبت للحمصي صفاته وقد لاقت هذه الشخصية قبولاً شديداً في سوريا حتى اتخذت في السبعينات ظاهرة الصرعة، ساعد في ذلك التأثير التاريخي والتراثي، من خلال الحديث عن مغفلي حمص^(١٨٩).

أما علي ديب حسن يقول:

"ليس هناك نكتة حمصية ولا شامية ولا ..الخ، فكثيرة هي النكت التي تروى على أساس أنها حمصية وهي مصرية وفي مصر ينسبونها إلى الصعايدة و الصعايدة هم أناس طبيون مسالمون لكنهم معروفون بقسوتهم وخشونة حياتهم، وبالتالي النكتة عامة شاملة، أما لماذا يتحمل أهل حمص عبء النكتة وحدهم؟ يجيب علي حسن: "ليست هناك أية إجابة محددة أبداً، إنما يمكن أن نقول أن آراء

(١٨٧) مصدر سابق ٣٣٦

(١٨٨) راجع ص ٧ من هذا الكتاب، حول رأي بو علي ياسين في هذه النقطة

(١٨٩) بيان الحد بين الهزل والجد، ص ٢٢٩ وما يليها

المازني التي طرحها حول انتشار وازدهار النكتة المصرية، صالحة في هذا المجال أيضاً، أهمها: خفة الدم المصري - الموقع الجغرافي - المكانة التاريخية والاجتماعية^(١٩٠).

وهناك عوامل كثيرة صبغت طبع المصريين بالمرح والفكاهة منذ القدم، كما يقول الأستاذ أحمد أمين،... فلليئة الطبيعية التي عاش فيها المصريون ميزات كثيرة.. منها وادي النيل المعطاء يفيض على الوادي الخصيب... ولاشك أن الحياة في السهول الفساح المنبسطة وقت المصريين الأوهام والخاوف وتعقد النفوس^(١٩١).

تركيبة الشخصية الحمصية:

هذه العوامل تنطبق بدرجة كبيرة على حمص، فهي أكبر المحافظات السورية مساحة وأكثرها تنوعاً بيئياً، وفيها "كان" نهر العاصي وطبيعته الخلابة. و "أهل حمص الأذكياء"، يعتبرون من أمهر الوسطاء في عالم التجارة... فحمص تشترك مع حلب ودمشق في السيطرة على حركة التجارة والمرور بين الشرق والغرب، والفرس والروم، ووادي النيل، ووادي دجلة، حتى أن هذا الطريق، الأخير، الذي كان يربط بين أقدم حضارتين، يعتبر في نفس الوقت أقدم طريق تجاري عرفه العالم^(١٩٢). وحمص هي المنطقة الوسطى في سوريا، وبالتالي هي ممر رئيسي للمسافر والتاجر ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، بالإضافة لكونها مركز للتفاعل الاجتماعي وهذا يؤثر على تركيبة الحمصي القادر على التأقلم بسرعة في أي مكان يقيم فيه، بالإضافة لكونه محبوباً من قبل أكثر - إن لم نقل كل - المناطق السورية.

وفي سوريا معروف الحمصي بخفة دمه ودماثته، غالباً ما تتقذ أهل حمص من مواقف حرجة "يستنتج د. محمد المخزنجي في استطلاعاه عن مدينة حمص من إحدى أساطير حمص الحية التي تقول إنها مرصودة من العقارب، ما يدعم القول بطيبة

(١٩٠) النكتة العربية بين الماضي والحاضر، ص ١٨٦

(١٩١) موسوعة الأدب الضاحك، مرجع سابق، ج ٢، ص ٩-١٠

(١٩٢) حمص ...، مجلة العربي- العدد ٥٢- آذار، ١٩٦٣

الشخصية الحمصية إذ يقول : يُفسر عدم وجود العقارب بعدم ملاءمة التربة لبيضها ، وثمة تفسير علمي آخر يقول لوجود مادة الزئبق في تربة حمص.

ويتابع: "إنها أسطورة يرجعها البعض إلى جذور طوطمية ضمن الرموز الدينية للقبائل البدائية القديمة، لكن المدهش أنها ظلت تعبر بثبات ما تعاقب على المكان من معتقدات وثنية آرامية، فيونانية، فرومانية، ولم تتوقف الأسطورة عن الحياة حتى مجيء المسيحية، فلا عقارب- حقاً- في حمص.

ولعل ذلك يدعم القول بطيبة الشخصية الحمصية التي هي - برغم من عناد ومباشرة صادمة أحياناً- أبعد ما تكون عن أي ملامح للغدر والمؤامرة والانتفاف واللدغ التي تتسم بها العقارب"^(١٩٣).

ولعلنا واجدين في تاريخ المدينة التي يعود تاريخها إلى حوالي ٢٤٠٠ ق.م ومنهم من يردها إلى تاريخ أقدم، ومعنى إسمها علاقة بشخصية سكانها، فثمة من يقول أن حمص هي لفظ آرامي "الأرض اللينة" وثمة من يقول أن اللفظ حمص جذر كنعاني يعني فيما يعنيه "الخجل" ربما من حمرة اللون، ويرجعون أصل المدينة إلى قرية لبنانية هاجر سكانها إلى موقع المدينة الحالي عندما تعرضت الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط منذ منتصف القرن ١٥ ق.م إلى غارات "شعوب البحر" أو لصوص البحر عليها، ولعل حمص اللبنانية أصابها ما أصاب أوغاريت التي تهدمت وأحرقت على يد هؤلاء المغيرين عام ١١٠٠ ق.م.

ومن ثم انسحب الناجون من حمص اللبنانية باتجاه الشرق التماساً للأمان. وأقاموا في المنطقة الوسطى من سوريا في موقع التل الحالي، وأنشأوا قرية أسموها حمص ليعبروا عن تعلقهم بموطنهم الأول على عادة النازحين في كل زمان ومكان^(١٩٤).

(١٩٣) حمص... رحابة المكان، مرافئ الزمان، العربي- العدد ٤٥٦- تشرين الثاني ١٩٩٦

(١٩٤) حمص دراسة وثائقية في الحقبة من ١٨٤٠-١٩١٨م، مرجع سابق ص ٢-٣

و" المستعرض لبنية حمص الظاهرية يلاحظ عدم وجود الجبال المعيقة بها، لهذا كانت- ولاتزال- عقدة مواصلات مهمة. ولقد ساهم موقعها ليس في جعلها منطقة اتصال إدري مهم فحسب، بل جعلها منطقة اتصال ثقايفي، واتصال اقتصادي، واتصال إنساني"^(١٩٥).

(١٩٥) حمص... رحابة المكان، مرجع سابق ص١٢٦

وجهة نظر

" لو منع الناس من مدح أنفسهم وذم الآخرين،

لقللة مادة الكلام جداً"

أثارت انتخابات العام ٢٠٠٦ لفرع اتحاد الصحفيين في محافظة حمص الكثير من الاحتجاجات في صفوف الصحفيين البعثيين نظرا لفرض الأسماء من قبل فرع حزب البعث. فعبر أحد المرشحين عن احتجاجه على طريقة "الإملاء" التي فرضت على الناخبين بأن قام بترشيح كل من الفنانة هيفاء وهبي، ونانسي عجرم، وإليسا لتمثيله باتحاد الصحفيين، والطريف أن أسماء الفنانة الثلاثة تليت أمام الصحفيين مترافقة مع احتجاج رئيس اللجنة الذي اعتبر الأمر "عيباً".^٦

يمكن الآن النظر إلى مراحل تطور تاريخ التنكيت على أهل حمص ضمن دائرة تاريخية بدأت بعيداً للمجانين اندثر وبقي صدهاء في يوم الأربعاء عبر التاريخ ثم عبادة تصل طقوسها إلى حد الجنون، ثم بلاهة، ثم تباه، ثم حمق، ثم جدبة، ثم جنون، وبذلك تعاد الحلقة ذاتها لكن مع تغير المفاهيم.

تظهر الفصول السابقة أن حمص كانت مرجعاً دينياً على صعيد الأطوار الدينية التي مرت بها. كما أنها كانت "كعبة" للماجنين ومجبي اللهو والطرب. ويمكن أن نشبه حمص بعملة لها وجهان، وجه مادي (اللهو والمجون) والآخر روحي (التصوف).

(٦) حزب البعث وصحفيو حمص، نشرة كلنا شركاء في الوطن عدد ١٤ تموز ٢٠٠٦

وتاريخ حمص الذي فصلناه، بما يخدم موضوعنا، أظهر كيف اجتمعت في حمص تلك الصفتان المتناقضتان، وهنا يمكننا أن نجمل ما توصلنا إليه من نتائج خلال دراستنا:

يوم الأربعاء: هو يوم مقدس، في حمص، إذ فيه كان يتم التحضير لأعياد الربيع القديمة، والتي منها يوم المجانيين أو "عيد المجانيين"، إلى أن اندثر ولم يبق منه إلا التسمية.

ثم جعله بعض المتصوفة المسيحيين "يوم الرب" وبذلك تم إيجاد علاقة بين يوم الأربعاء والسيد المسيح "فكان ليوم الأربعاء متمماً" كما يقول المتصوف الإسلامي ابن عربي. وفي التصوف الإسلامي دخلت كلمة المجاذيب والدرأويش كإحدى درجات التصوف في الطرق الصوفية، فنظروا إلى المجاذيب على أنهم صالحى هذه الأمة وهم رجال الغيب المعنّون (بأهل الله) والمجذوب لغوياً هو المختل عقلياً.

وليس من المستبعد أنه كان يجري في هذا اليوم إحياء لذكرى ما، أو احتفاء بمناسبة معينة، وعلى الأرجح أنه كان يوم خاص بحمص دون المناطق الأخرى.

١. حمص لفظ آرامي يعني "الأرض اللينة" وجذرها الكلمة الكنعاني يعني فيما يعنيه "الخجل"، وإن كان هذا حال اسمها فإن موقعها وفر لها أهمية حضارية دينية وسياسية واقتصادية طبع أهلها بصفات اللين والطيبة.

٢. كانت طقوس عبادة إله الشمس الحمصي، ترافق بحركات طقسية تعتمد الرقص والموسيقى... التي يتصاعد إيقاعها ويصخب ويتسارع إلى حد الهذيان، كل ذلك كان يثير نشوة الجماهير حتى الجنون، وهذه الطقوس بقدر ما كانت مألوفة في حمص، كانت على ما يبدو في نظر الرومان شاذة، رغم صلة حضارتهم بعبادات ماجنة كعبادة ديونيسوس وباخوس.

٣. لم يختر "القديس" سمعان المتبالة، التباله كطريقة في العبادة إلا ليحافظ على الإرث الروحي الذي حصله عن طريق تصوفه، فالمنطق الصوفي يقوم أساساً على احتقار الجسد عن طريق إهمال غرائزه لصالح ما هو أسمى أي الحاجات

الروحية والتواصل مع الخالق وصولاً للتوحد معه. فهذا الإرث الروحي الذي كانت حمص قد حصلتة هو الذي جعل من أهلها يستوعبون هذه الطريقة تمهيداً لتطبيقها ثم نشرها في العالم. وهي طرق كان لها امتداد في التصوف الإسلامي.

٤. بناءً على ذلك أصبحت حمص "عاصمة التباله الروحية". لها في ذلك فلسفة خاصة^(١٩٦) "تسعى إلى الاستيلاء على المطلق بعاصفة (طقوس العبادة)، وهي تشعر بأنه حيث فشلت الرصانة فقد ينجح السكر الروحي" "لأن العقلية المنطقية لا تعمل إلا في نطاق النظام الطبيعي، وتبعاً لذلك فإن النظام الإلهي لا بد أن يكون غير قابل للمعرفة من جانب العقل المنطقي" فنحن ننتقل بالتصوف "من عالم الفكر والعقل والفلسفة إلى أرض الأحلام والظلال" "على اعتبار أن التصوف هو " النصف الآخر من الحقيقة الذي أغفلته الفلسفة الطبيعية" وهو طريق يعتمد على "الحدس الديني... واللغة الرمزية" اللذان يقومان مكان "العقل، واللغة في النظام الطبيعي"، وبالتالي (فقد رأت هذه الفلسفة أن) ما تحتاجه الإنسانية^(١٩٧) ليس ببغاوية تزعم عقلانية مضحكة، بل ما يملأ خواءها المادي بـ " الوجود الروحي" الذي لا يشغله متحذلقون، بل صادقون في التحرر من أسر المادية الكاسرة " ليخلقوا في سماءهم الخاصة.

٥. هذه هي البيئة الدينية التي ترعرع فيها التصوف على الطريقة الحمصية. لكن "التباله" بدأ يأخذ معناه المادي على يد العرب المسلمين خلال حروبهم التي قاموا بها للسيطرة على بلاد الشام، وتحديدًا بعد وفاة الرسول العربي الذي كان مدركاً لأهمية حمص الدينية، وهذا يظهر في حديث رواه أحمد بن حنبل في مسنده: " عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال سرت حتى أدخل الشام ثم

(١٩٦) هذه الأفكار التي سترد فيما يلي للفيلسوف "ستيس، ١٨٨٦-١٩٥٢" وردت في دراسة لأعماله وتحديدًا لكتابه "التصوف والفلسفة"، وطبعاً لم يرد ذكر للتباله كطريقة في التصوف فيه، وإنما وجدت أن هذه الأفكار تخدم الموضوع الذي نبحت فيه (ملحق السفير الثقافي، الجمعة ١٥ آذار ٢٠٠٢، نواف الموسوي)

(١٩٧) كما يقول الأستاذ نواف الموسوي كاتب المقال.

أنزل حمص فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليعثن الله منها يوم القيامة سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب عليهم مبعثهم فيما بين الزيتون وحائطها في البرث الأحمر منها" (١٩٨).

٦. العامل الأهم في تكريس صفة "الحمق" المادي كان صفحات الأدب والتاريخ العربي، التي حملت بين طياتها صراع العصبية العربية والطائفية.

٧. كثيراً ما تطلق صفات جحا على الحمصي، كهذه النكته التي تروى على جحا في الكويت وتنسب إلى الحمصي في سوريا: "كان جحا لا يعرف القطار. ولما سأل عنه، قيل له: هو أسود طويل. ثم أراد جحا أن يسافر، فرأى رجلاً طويلاً، فحاول الركوب على ظهره. قال الرجل: ماذا تفعل؟ فقال جحا: أريد أن أسافر" وخاتمة نكته الحمصي أجمل: "يا لله، شدّ ع حمص" (١٩٩).

٨. وجحا على ما يروي ابن الجوزي "يكنى أبا الغصن، وقد روي عنه ما يدل على فطنة وذكاء، إلا أن الغالب عليه التغفيل، وقد قيل: إن بعض من كان يعاديه وضع له حكايات والله أعلم، عن مكّي بن إبراهيم أنه يقول: رأيت جحا رجلاً كيساً، ظريفاً، وهذا الذي يُقال عنه مكذوب عليه، وكان له جيران مخنثون يمازحهم ويمازحونه، فوضعوا عليه" (٢٠٠). وكان ابن الجوزي أكثر

(١٩٨) البرث جبل من رمل سهل التراب لينه والبرث الأرض السهلة اللينة والبرث أسهل الأرض البرث أرض لينة مستوية تنبت الشعير وفي الحديث يبعث الله منها سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب فيما بين البرث الأحمر وبين كذا البرث الأرض اللينة قال يريد به أرضاً قريبة من حمص قتل بها جماعة من الشهداء والصالحين ومنه الحديث الآخر بين الزيتون إلى كذا برث أحمر. (لسان العرب، لابن منظور ج٢، ص١١٥) وحمض بالفتح ثم السكون والضاد معجمة وهو في اللغة كل نبت فيه ملحوة ترعاه الإبل وادي حمص قريب من اليمامة له ذكر في شعرهم، حمض وعريق بالتصغير موضعان بين البصرة والبحرين شرقي الدهناء وقيل هو بين الدو وسودة وهو منهل وقربة عليها نخيلات (ياقوت معجم البلدان ٢/٣٠٥). ولكن الحديث واضح أنه يقصد حمص الشام وليس حمض أو وادي حمص الكائن قرب اليمامة.

(١٩٩) بيان الحد بين الهزل والجذ، مصدر سابق، ص٢٤٣

(٢٠٠) أخبار الحمقى والمغفلين، ابن الجوزي، ص٤٠

المتحاملين على أهل حمص كياقوت يلخص ما أردنا أن نقوله في شأن النكتة الحمصية ، أن من كان يعادي أهل حمص وضع لهم النكات.

في حرب الأيديولوجية الفكاهية التي خيضت ضد حمص كان الهدف الرئيسي (نُكْتُ المزاج) من حالة إيجابية للحمصي إلى حالة سلبية ومن حالة سلبية لمن يستمع للنكتة من غير أهل حمص إلى حالة إيجابية لتحقيق الهدف من تحطيم معنويات العدو أوالتشفي والانتقام منه. طبعاً مع العلم أن الأثر الذي كان مطلوب إحداثه كما هو واضح من مفهوم النكتة السابق، تحول إلى جانبه الإيجابي من قبل متلقي النكتة أي أهل حمص (باستثناءات قليلة) ورامي النكتة وهو في أغلب الأحوال الحمصي نفسه.

يمكن القول إن النكتة الحمصية هي بنت الشعر "الهجائي" والقصص الفكاهية والنوادر التي ولدت على فراش الحياة العباسية"الوثير" (في القرن الثاني عشر الشك والمجون كما يسميه د. طه حسين والقرن الثالث) الذي أفسح المجال لحرب الأيديولوجية الفكاهية أن تأخذ دورها في الصراع (المسيّف) السني/ الشيعي المتبلور خلال العهد الأموي بعد أن شهدت مخاضها في العصبية القبلية (القيسي/اليمني)، والتعصب الطائفي.

وعليه كان التكتيت على أهل حمص تحصيل حاصل للعصبية القبلية والطائفية وبشكل أدق للصراعات السياسية- الدينية التي كانت وما زالت تحكم عالمنا العربي.

كان السيف من وسائل الصراعات العربية/العربية، والإسلامية/الإسلامية على الصعيد الداخلي، و"العربسلامية"/الخارجية عبر التاريخ، كسلاح مادي تطور مفهومه بالتطور التكنولوجي. وكان الشعر (الهجاء، والمدح)، والقصص والنوادر من الأسلحة النفسية (في التاريخ الحديث للعرب أصبحت الخطابة التي فرغت محتواها، نظراً لاحتراف العرب لنوع جديد من الأسلحة في مواجهة خصومهم يعتمد العبارات الطنانة الفارغة في حلّ مشاكلهم).

وليس استمرار التندر على أهل حمص حتى الآن إلا شكل من أشكال الأسلحة التي اعتمدت الشعر والقصص والأخبار الفكاهية في الماضي للتسلية والتقليل من أهمية الخصم.

ويبرز الجانب العدائي (الهجائي) للنكتة عن طريق هجاء الحمصي بإطلاق أوصاف معينة عليه، وهي بنفس الوقت تسلية، تعتمد الأسلوب الرقيق والعبارة الرشيقة لتصل إلى المتلقي بأقل جهد.

طبعاً لم تأخذ الروايات التي أُطلقت على "الأحمق الحمصي" شكل النكتة كما نعرفها الآن، لأن الفترة المناسبة التي ظهر فيها التكتيت على أهل حمص، كانت على الأغلب "فترة ركود نسبي على المستوى الاجتماعي-السياسي" حيث يكون المناخ مناسباً لحرب الأيديولوجية الفكاهية، وذلك يتجلى بأوسع مدى له أواخر النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي إذ ظهرت في تلك الفترة نكتة تقول: "أن أهالي حمص تقاسموا نهر العاصي مع أهالي حماة بحبل، وفي اليوم الثاني وجد الحمويون حمصي يقف في قسمهم وينقل الماء بالعلبة إلى قسم أهل حمص".

وفي فترات "الركود" تُستعاد الخلافات مهما كانت بسيطة وذلك يصح حتى على المستوى الشخصي فما بالناس على مستوى دول أو عصر من العصور، لذلك فإن فترة الحكم العثماني، مثلاً، منذ بدايته، لم تكن أفضل من عصر إنحطاط الدولة العباسية، لكننا لاحظنا فيها بداية للتحويل عن التعصب ولنا في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني مثلاً على ذلك وهو "المعارضات الزينية للمنظومات الهلالية" ففيها لاحظنا أن موقف أهل حماة من هذه المعارضات بأن يكثر المزاح مع الهلالي باستحسان أقوال ومعارضات الشيخ الحمصي "لتقطيع الأوقات وجلب البسط"، أهمية في "تناسي" تعصب الماضي، فلم تعد سرقت بطيخة "تجعل الدم للركب" على حد قول المثل الشعبي، كما كان في السابق.

ونلاحظ من النكت التي ظهرت أواخر ثلاثينات القرن الماضي مقارنة مع قصة الشاعرين أن أهل حمص كانوا يسخرون من أهل حماة أكثر مما كان يفعل الآخرون، "امرأة سقط ابنها في العاصي، فأخذت تفتش عليه من حماه حتى حمص.

ولما وصلت إلى حمص. قالوا لها: أنت غلطانة، لازم تفتشي عليه من حماه لأنطاكية، لأن العاصي بيطلع طلوع ما بينزل نزول. هزة المرأة رأسها وقالت لهم: انتو ما بتعرفوا ابني، ابني قتح ودائماً معاكس"^(٢٠١).

ولم يكن أهل المدينتين يتركان فرصة تمر دون أن يتخذوا منها فرصة "للتشنيع" على بعضهما. فيقول أبناء حمص في معرض "تشنيعهم" على أهل حماة: "صعد حموي إلى طرف المئذنة، فصرخ به الناس يطالبونه بالنزول لكنه رفض.. في هذه الأثناء مر حمصي ورأى الجماهير وعلم بالقصة، فطلب سيفاً، وأمسكه بيده، وقال موجهاً كلامه للحموي الذي في نهاية المئذنة: إذا لم تنزل حالاً سأقطع المئذنة بهذا السيف! فخاف الحموي ونزل! . ويرد الحمويون على هذه "التشنيعة" فيقولون: كثرت "تشنيعات" أهل حمص علينا، فرأينا أن خير وسيلة لإيقافهم، عند حدهم هو أن نرسل لهم مندوباً، قال لهم: إذا لم تكف تشنيعاتكم على أهل حماة، فسنضطر لقطع مياه نهر العاصي عن حمص!! ومنذ هذا اليوم توقف أهل حمص عن التشنيع على حماة، كما يقول أهل حماة!! خوفاً من قطع مياه العاصي من حماة عن حمص. والنكته هي أن نهر العاصي ينحدر من حمص إلى حماة، وليس من حماة إلى حمص!!^(٢٠٢) (أي من الجنوب إلى الشمال، عاصياً باقي أنهار سورية لذلك سمي بالعاصي)^(٢٠٣). وربما بدأت منذ تلك الفترة تشنيعات أهل حماة تزداد على أهل حمص بشكل ملحوظ!!

(٢٠١) بوعلي ياسين، مصدر سابق، ص٢٣٢، نقلاً عن المضحك المبكي، العدد ٣٩٣، تاريخ ١٩٣٨/١١/٥

(٢٠٢) مجلة العربي، العدد الثاني والخمسون، مارس، ١٩٦٣

(٢٠٣) يقول الأستاذ وليد قنباز: (أن ذلك لم يكن السبب الوحيد لتسميته بالعاصي: "فالبعض يرد التسمية إلى أن مصب النهر في البحر قرب السويدية وعلى بعد ٢٧ كم من أنطاكية وأنطاكية وما حولها بقيت بيد الروم البيزنطيين بعد دخول الإسلام وفتوحاته وبعد الروم دخلها الصليبيون بأياد غير عربية وكان العاصي يرويها فقالوا كيف لنهر يجري في ديار الإسلام يدخل أرض الكفر ويروي أهلها؟.. إنه عاص!! (مجلة العربي العدد ٤٨٤، مارس، ١٩٩٩، في استطلاع عن مدينة حماة ويقول آخرون: لأنه تآبى على ضفافه فاحتال عليه الحمويون بنواعير تغني له وتسرق مياهه دون أن يدري، حتى أن أحد الشعراء قال: عصى فلم يسق أرضاً من حدائقهم إلا بحيلة وسواس النواعير)

تلك التشنيعات التي أدت إلى نشوب معارك عديدة بين أهل البلدين، ولكن جميع هذه الخلافات زالت الآن من الصدور وإن كانت ما تزال تدور في النوادي والمجتمعات كتسلية وتمضية للوقت. يروي أحدهم هذه النقطة: "كان حموي وحمصي يسييران في الطريق، فقابلهما غريب، فسأل الأول: من أين أنت؟ قال: من حماة... حماك الله. وسأل الثاني: ومن أين أنت؟ فقال من حمص... حمصك الله!"^(٢٠٤)

من العوامل التي ساعدت على كبت الطابع التعصبي بين الحموية والحمصية وتجلياته عبر المزاح والتسلية دخول الشامي كطرف شريك للحمصي في النكت، نتيجة الهجرة الداخلية التي شهدتها العاصمة دمشق من المدن السورية المختلفة وزيادة احتكاك أهلها ببعضهم .

وأصبح هناك نوعين من النكت إحداها تتحدث عن الغباء الحمصي والثانية عن ذكاء أهل حمص:

النوع الأولي: تقول: أن شامياً يتتزه مع حمصي في دمشق، فوجد أن الحمصي يلقي السلام أكثر منه على الناس، فقال له الشامي: غريب هناك الكثير من أهل حمص في دمشق، فأجابه الحمصي: لَكُنْ كيف ماتشوفون بحمص.

- أربع حماصنة قصدوا دمشق للعمل، فنصحهم أصدقاؤهم بأن يشارطوا شوفير التاكسي قبل أن يركبوا السيارة، لأن شوفيرية الشام "بالموطية"، فشارطهم شوفير التاكسي الشامي بعد جدل طويل بـ ٢٥ ل.س أجرة توصيل، وعندما وصل الأربعة إلى مكان عملهم أعطاه كل واحد منهم ٢٥ ل.س.

النوع الثاني: خطر لشامي وهو راكب على دراجته الهوائية (بسكليت) أن يسخر عما يُشاع عن ذكاء أهل حمص فوقف أمام كازية يمتلكها حمصي وقال له: امسح لي بلور السيارة، قال له الحمصي: هذه "بسكليت" وليست سيارة، قال له الشامي: إنتي ما دخلك حبيبي نضف البلو، وكل شي بحقو، فتظاهر الحمصي بأنه ينظف البلور، لكن الشامي زاد الطلبات على الحمصي فمرة يقول له عبي بانزين، و

(٢٠٤) مجلة العربي، العدد الثاني والخمسون، مارس، ١٩٦٣

غيرزيت الفرام، و غير بواجي السيارة وكل شي بحقو، تظاهر الحمصي بأنه فعل كل ذلك، وبالفعل دفع الشامي وهو يسخر من الحمصي النقود كاملة، وأثناء خروجه من باب الكازية عاجله الحمصي بلكمة قوية على رأسه وهو يقول للشامي أعتذر لأنني لم أغلق لك طبون السيارة.

- لماذا يغطي الحمصي وجهه عند يأتي إلى دمشق؟ لأن الشامي ما بينعطا وجهه.

هناك " حكاية باسمه " يرويها الأستاذ نجاة قصاب حسن مجهولة الطرف المشارك للحمصي، تقول: " دخل حمصي إلى دكان فيها ساعات كثيرة معلقة. وقال: بكم هذه الساعة؟ وأشار إلى واحدة منها، فأجابه الرجل: ليست للبيع. قال الزبون: وهذه؟ قال صاحب المحل: ولا هذه. قال فأيها للبيع؟ أجاب ولا واحدة. أنا لست ساعاتياً، أنا مطهر أولاد. قال له الرجل مستغرباً: فلماذا تعلق هذه الساعات؟ أجاب المطهر الحمصي: ماذا تريد أن أعلق لك إذن؟^(٢٠٥) (وهذه النكتة يرويها الشوام اليوم عن الصفوري مطهر الأولاد المشهور مع إغفال السائل، وبعضهم يجعل السائل هو الحمصي والطرف الآخر الصفوري)

ونظراً لأن عنصر (تكثيف الحدث أو الفكرة) في النكتة- إن صحت التسمية- منحها وضع ارقى من القصة الفكاهية، وكان تعبيراً عن ارتقاء مستوى التفكير لما فيه من حس عالٍ في "التقاط اللحظة" وصناعتها ورميها وانتشارها ربما بنفس الوقت، والأرجح أن النكتة الحمصية لم تنتشر بمثل ما هي عليه الآن، إلا أواخر السبعينات حيث بدأ الحراك السياسي " يحتضر" ويضعف حتى التلاشي في الواقع السوري وخاصة في النصف الأول من الثمانيات نتيجة للعديد من الضغوط الداخلية والخارجية ليست موضوع دراستنا، ولا يخفى على أحد ما للفتور السياسي وتراجع الاهتمام ب"الشأن العام" من دور أساسي في صرف العامة وحتى المهتمين عن الأمور الجوهرية ودفعهم إلى الاهتمام بالأمور السطحية، سيما أن ذلك ترافق مع "عزل الشارع السوري" عن رجالات الفكر وقادة الرأي .

(٢٠٥) حديث دمشقي، مصدر سابق، ص ٣٤٤

ففي خمسينيات القرن الماضي ساهمت " الفورة السياسية والإجتماعية و الثقافية" التي سادت سورية" بعد فترات " الركود " في تحرير" الزخم السوري" الذي كان يتبدى بين الحين والآخر خلال " فورات التحرر" من الإستعمار- بكل أشكاله- وهذا شكل صحوة كان لها الدور الأساسي في تخفيف - وليس تناسي - حدة التعصبات المحلية والطائفية والسياسية التي شغلت الشارع وشكلت القسم الأكبر من اهتماماته، وبرلمان الخمسينات خير مثال عليها، ونحن نذكر رأي الحمصي الذي يحمل ياقوت كل ما حصل بين أهل حمص والحموية علماً أن رأيه ورد عام ١٩٦٣، لكن هذه الحالة لم تستمر طويلاً إذ تم وأدها، واستعيدت حالة الركود. وفي فترات الركود السياسي الإجتماعي الثقافى يصبح شغل الناس هو الناس، وليس "الهم العام" .

يقول الأستاذ نجاه قصاب حسن في مذكراته: " كنت حين يسألني أحدهم عما إذا كنت دمشقياً أجيبه نعم لكن بعد تيمور، وأحسب أن جوابي ذكي وخفيف دم، وأني أتبرأ من صفة ألقها من لا يحبون دمشق أو من يداعبوننا إذ يقولون عن أهلها (بناديق تيمورلنك).

وبعد أن قرأت قصة دخول تيمورلنك إلى دمشق وجدتني أستحي أن أجيب على سائلي بالجواب القديم وأقول: نعم أن دمشقي، وفخور بانتمائي إلى مدينة ما ركعت أمام الغزاة^(٢٠٦)... فدمشق اغتصبت غدراً وما ركعت حرباً، فهي تستحق أن تقف بشرف بعد كبوتها...وإذا كان من يتحدثون عن (البندقية) يشيرون إلى تهجين النسل، فإن سورية ملتقى الحضارات والغزوات منذ آلاف السنين، استقر فيها الكثير منهم، وتركوا من الأولاد في عشرات القرون أكثر مما يمكن أن يترك الغصب في ثلاثة أيام، بآلاف المرات... إذن فليس علينا أن نخجل إذا داعبنا أحد بموضوع هذه (البندقية) وأصلاً لا يقولها غير الدمشقي للدمشقي إلا للضحك. ولكن علينا أن نرد بذكر الحقيقة عن هذا التاريخ المجهول. ثم نضحك فعلاً ونعتبرها دعابة لا تصدق علينا مثلما لا تصدق الدعابات عن حمص، فقد رأيتم أن ذكاء أهلها كان بأن تشاطروا على تيمورلنك (عندما استقبلوه بالدفوف) فحسبهم معه، وما يزال أهل

(٢٠٦) حديث دمشقي، مصدر سابق ص١٧

حمص يستخدمون سمعتهم الضاحكة حتى يحققوا من مطالبهم ما يشاؤون، المدن كالبشر، لها ناسوت قد يستمد عناصره من مناخها." (٢٠٧)

وأستعيد هنا موقف أحد الحاضرين بعد أن خرج من محاضرة الأستاذ نهاد سمعان التي تحدث فيها عن يوم الأربعاء في حمص بتاريخ ٢٠٠٢/٢/٦ حيث قال: "والله ها لجدبة شغلة بترفع الراس ومانا شغلة سهلة أبدأ".

أخيرا أدعو إلى إقامة مهرجان عالمي للفكاهة في مدينة حمص، كما دعا في وقت سابق بو علي ياسين في كتابه بيان الحد بين الهزل والجد فأهل حمص فأهلها ليسوا أقل ظرفاً من أهالي غابروفو وسوسة أو أبردين" الذين تُطلق عليهم النكت في كل من بلغاريا وتونس واسكتلندة وهي مدن يقام فيها مهرجانات للضحك ويطلق على أهلها نكات كالتي تطلق على الحمصي مع فارق بسيط وهي أن الحمصي أكثر نجومية منهم، أكثر من ذلك لماذا لا يتم العمل على أن تكون حمص عاصمة للضحك في العالم فكم أصبحنا بحاجة إلى مدينة ضاحكة تثور على ما يسود في عالمنا من كآبة وحروب.

قال الأول: أنا بعكسك تمام بس نام ما فيني أشرب قهوة

- قال حمصي فتح محل سماه: / بقالة الأقمشة لحلاقة الأحذية الغذائية

- في حمصي سأل واحد بالشارع وين الرصيف الثاني ألو مقابيلك فألو الحمصي
سألت هنيك قالولي هون!

- ياباني فات على بقالية بجمص بدو يشتري عشر علب كولا وقال للبياع
كوميهاني سيبه كولا'
قام رد البياع الحمصي
بدك عشر علب شو'

- حمصي سمى ابنه على اسم أبوه... بابا

- حمصي عمل عملية جراحية .. نجحت .. قام عملها مرة ثانية

- شو بيكون مكتوب داخل أحذية الحماصنة ؟؟ .. الأصابع أولاً

- حمصي راح يشيع بجنازة

سأل واحد: شو بيشغل الميت

قال: يحضر قبور

قال الحمصي

سبحان الله من حفر حفرة لآخيه وقع فيها

- حمصي يصلي جنب واحد اسود

قال الامام استوو

قال احنا استويننا بس في واحد احترق..

- صحفي سأل حمصي : كم نسبة البطالة في حمص ؟

الحمصي : والله حمص كلها ابطال

- حمصي هدته صاحبتة ببغاء... واتصلت تسأله:

شو رأيك بالهديه ؟؟ قال عادي مثل طعم الجاج!!!

- حمصي دخل المسجد

وسأل الشيخ لمين المسجد؟؟، الشيخ: إننا كلنا، الحمصي: أنا بدي بيع حصتي!!

- عصفور حمصي كان يطير على ارتفاع منخفض فاصطدم بزجاج سيارة

وسقط على الأرض ، شفق السائق عليه فأوقف السيارة وحمل العصفور

وأخذه إلى البيت ، وهناك وضعه في قفص ووضع أمامه ماء وخبز ،

ولما فاق العصفور ووجد نفسه وراء الشبك ضرب بجناحه على رأسه قائلاً : العمى!!

سجن وقضبان !؟ معقولة نكون روحناه للزلمة!!

- حمصي راح للدكتور قال له الدكتور امشي كل يوم ٥ كيلو ، اتصل

الحمصي بعد خمس ايام قال للدكتور انا هالأ في حلب شوساوي

- ليش فترة الراحة للشغيلة الحماصنة بس عشر دقائق مو أكثر؟ لأنه إذا

أعطوهم فترة راحة أطول لازم يرجعوا يفهموهم الشغل من اول وجديد

- مرة واحد حمصي كان راكب في سفينة كبيرة مسافرة بالمحيط

خلال الرحلة بتجي إخبارية لقبطان السفينة أنو السفينة تحوي قنبلة ورح تنفجر
بعد دئيتين القبطان انصعق من الخبر وما عاد عرف شو بده يعمل

ما لنا شي يعمله غير شي وحيد كونه السفينة منفجرة وما عاد يلحى يعمل
شي، نزل ونادى بالركاب وجمعن وقال كونه الرحلة طويلة رح لعبكن لعبة
حلوة... بعد للتلاتة وكلكن سوا بتؤلوا بووووووم طبعاً المساكين انبسطوا واستنوا
القبطان لقال تلاتة وكلن مع بعض آلوا بووووووم طبعاً بنفس اللحظة انفجرت القنبلة
وصارت السفينة مئة شقفة والناس طارت وتناثرت بالمحيط

على خشبة بعيدة عائمة على وجه المياه كان صاحبنا الحمصي متمسك ومنهك
من التعب، وهو متعلق بالخشبة لمح خشبة قريبة عليه وللصدفة كان القبطان
متمسك فيها!!

اتطلع الحمصي بالقبطان وقال :

يا زلمي ما أتقل مزحك تضرب انت وهل اللعبة

- صمم أهل حمص موقعين على الإنترنت واحد شتوي عنوانه www.homs.com
والآخر صيفي عنوانه www.homsnoos.com

- هل تعلم لماذا انقرض أهل حمص؟

لأن حمصي وقع في بئر وأخذ يصيح " لحقوني ... لحقوني " فتبعه أهالي حمص
كلهم.

- مستشرقاً زار حمص، لكنه رجع إلى بلده مستغرباً

- هل تعلم لماذا فُقدت ظروف لبتون من حمص؟

لأن أهل حمص استعملوها علاقات للمفاتيح.

- حمصي جالس عند الحلاق، اتصلت معه والدته على الموبايل، فقال لها
مستغرباً: "أُمي، كيف عرفت إني عند الحلاق".

- انتحر الدجاج في حمص بعدما قالوا لأهلها: " خلي الماجي تنفعكم "

- جاء في البرنامج الانتخابي لمرشح حمصي: ١- مكافحة التلوث ٢- نقل مدينة حمص من شرق المصفاة إلى غربها.

- لماذا يأخذ الحمصي دواءه قبل نصف ساعة من مواعده؟
حتى يفاجئ الجراثيم.

- لماذا يأخذ الحمصي دواءه بعد ساعة من مواعده؟
لتطق الجراثيم من الغيظ .

- كيف تعرف أن الشغالة حمصية؟
لأنها تنظف المصعد في كل طابق.

- قرر أهل حمص بعد أن كثرت النكت التي يطلقونها على أنفسهم، ترقية نكتهم وبدل أن يقولوا النكتة، يكتفوا بأن يقول الرقم الذي يدل عليها، لكن أحد أهل حمص لم يكن في حمص عندما فعلوا ذلك، ولما رأى أصدقاءه يتبادلون النكتة الرقمية "ديجيتال" ويضحكون عليها من صميم قلوبهم، أحب أن يشاركهم، فقال لأصدقائه: "النكتة رقم ٣"، فساد الصمت والذعر بينهم، وما هي إلا لحظات حتى أتى إليهم رجال الأمن، وأخذوا الجميع إلى السجن .

- أحد ظرفاء مدينة حمص، رشح نفسه لبرلمان الخمسينات، وكان شعار حملته الانتخابية: "حاسبوني بعد أن تجربوني".

- حاول الحموية أن يلفتوا أنظار العالم إليهم بعد ما انتزع أهل حمص إهتمام العالم، فأنشأ الحموية سد بالصحراء ما أثار استغراب المحطات الفضائية وكاميرات الصحف التي بدأت تغطي الحدث، وفي اليوم التالي شوهد ثلاثة حماصنة على طرف السد يصطادون سمك.

- وهاهو الحمصي تلك الشخصية الهوليودية يشترك مع الأميركي والياباني والروسي في اختبارات إنتقاء أغلى دماغ بشري، وفيه قُدر عقل الأميركي بـ ٥٠٠ دولار، وعقل الياباني بـ ١٠٠٠ دولار والروسي بـ ٢٠٠ دولار، في حين قُدر عقل الحمصي بـ ١٠ ألف دولار، وعندما طلبت الدول السابقة توضيح لماذا بلغ دماغ الحمصي هذا السعر، جاءهم الرد بأن اللجنة كانت تجد عند فتح جمجمة أي شخص من مواطني الدول السابقة دماغ، في حين كانت تجد في جمجمة كل ٢٠٠ حمصي دماغ.

. حمصي فتح معمل تلج سماه معمل حمص للمياه اليابسة

. في واحد حمصي راح للدكتور بعد الفحص قاله الدكتور في عندك سرطان بالمخ، أم صرخ الحمصي: الله واكبر من وين أجاني المخ

. مرة واحد حمصي انقطعت شحاطته راح خيطها عند الكندرجي، بعد أسبوع شافها كويسة راح فك القطب

. شو بيكون مكتوب داخل أحذية الحماصنة؟ الأصابع أولا

. بعد ما يتحمم الحمصي شو بيعمل؟ يبشلق تيابو المبلولة

. ليش فترة الراحة للشغيلة الحماصنة بس عشر دقائق مش أكثر؟ لأنه إذا أعطوهم فترة راحة أطول لازم يرجعوا يفهموهم الشغل من اول وجديد
- قال في ولد حمصي سأل امه الحامل: ماما مين في ببطونك؟ قالتله أخوك
سألها بتحبيه؟؟ قالتله بي طبعا بحبه قالها طيب ليش بلعتيه؟؟ :-)

- قال في حمصي كان ماشي بالطريق، شاف قشرة موزة، قال وليبيبي على هالوقعة اللي بدي أكلها .

- قال في شاب صغير حمصي طلع من البيت، سألتو أمه، وين رايح يا حبيبي؟
قال لها 'أنا حرّ' نزل ع الشارع ووقف سيارة تكسي، سألو الشوفير، وين يا أستاذ؟
قال له الحمصي: إذا لأمي ما قلت يعني روح قول إلك؟؟؟

- واحد حمصي اشترى تكسي و فرحان فيها كثير، صاروا العالم يأشرولو:
(تكسي تكسي...؟؟)...وهو يقول: (ايه بعرف شو شايفيني أجذب).

- اثنين من الحماصنة خطر ببال الأول يقول حكمة فقال:قلي من تعاشر أقول
لك من أنت فقال الثاني من تعاشر؟؟ رد الأول من انت؟؟؟

- اثنين حماصنة عميقلدوا سيارة إسعاف واحد مد راسه من شباك السيارة
الييمين وصار يقول ويوو ويوو ويوو والثاني مد راسه وصار يقول أزرق أحمر أزرق
أحمر أزرق أحمر

- واحد محشش دخل عالدكانة و قلو للزلة عندك مارلبورو؟ قلو لأ، راح دخل
عالدكان اللي بجنبو و قلو: و إنته؟

- في مسابقة لاطول قصة في مدرسة حمصية وصلت الاحصائيات الى ان اطول ثلاث
قصص هي ١٠٠٠ صفحة ٢٠٠٠ صفحة ٣٠٠٠ صفحة ولما اجو يقررو اطول قصة لثو

بالصفحة الاولى ركب مازن على الحصان ومن الصفحة ١٢ الى ٢٩٩٩ دركد
دركددركد دركد وبآخر صفحة نزل مازن عن الحصان

- في واحد حمصي اشترى سيارة بي ام دبليو الحديثة وفتح عل الراديو ع
إذاعة BBC سمع هنا لندن تفاجئ الحمصي وقال يفضح عرض ها السيارة ما
اسرعا...؟

- ليش حماصنة بيكتبو على نمرة سياراتهم وثبة أو كرامة؟؟؟ قال لأنو بيكتبو
بالشام : جيش أو شرطة؟؟

- حمصي وقع من رابع طابق التمت الناس حوله وسألو شو في قللون ما بعرف هلق
وصلت

- دخلت سائحة أمريكية إلى محل خضرة في حمص ونظرت إلى البندورة وسألت
الخضرجي ما هذا؟
الخضرجي: بندورة.

السائحة: ليش بندورتكم صغيرة ؟ إحنا البندورة عنا في أمريكا كبيرة جدا ،
والله إنكم ما بتعرفوا تزرعوا. ثم نظرت إلى الخيار وقالت: ما هذا ؟
الخضرجي (بدأ يعصب شوي) : خيار .

السائحة: شووو ؟؟ هذا خيار ؟؟؟ وليش بتزرعوا صغير ؟ والله انكم ما
بتعرفوا الزراعة ولا عمركم سمعتوا فيها ، ثم نظرت الى البطيخ وقالت: شو
هاد ؟؟

- عصب الخضر جي وقال : عنب فرط

- مرة واحد حمصي راح لعند الصيدلي قله : عندك حليب أطفال

قلو الصيدلي: إيه شو إسمو

قلو الحمصي: عبد الرزاق

- ولد حمصي عم يقرا بكتاب قال لأبو : بابا بتعرف انو الاميركان مشيوا على

سطح القمر؟

عصب الأب وقال : هدول الاميركان بدون يضللوا يعبصوا بهالقمر لحتى يوقع

على راسنا

- كان في طالب حمصي كل يوم بيروح على المدرسة و بشق ٥٠٠ ليرة قدام

الأستاذ قام قالو الأستاذ أحسن ما تشقها أنا بسألك سؤال إذا عرفته بعطيك ٥٠٠ و

إذا ما عرفته باخذ منك ٥٠٠ قام سألته سؤال إلو جوابين مشان إذا جاوب الأول يقوله

خطأ و إذا جاوب الثاني يقوله خطأ قلو: من هو أذكى رجل في العالم فجاوب

الطالب الرئيس قام قالو الأستاذ خود هي ٢٠٠ و بس أقبض راتبي بعطيك ٣٠٠ .

- طلوعوا لاعبين الكرامة من المباراة مع الفريق الكوري عم يسبوا المدرب

سألوهم ليش؟؟؟

قالوا لأنو المدرب عطانا خطة المان تو مان وما بقى نعرف لاعب من الثاني

- ليش الحمصية بعد ما تتحمم بطب راسها؟؟؟

لأنو مكتوب على العلبة شامبو طبي.

- حمصي لغى مواعده مع الدكتور لأنو مريض.

- من لم يمتمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد ..
ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع..
هكذا يعلن الطيار الحمصي عن بدء إقلاع الرحلة

- حمصي عم يمشي مع واحد لادقاني ، قالو
الادقاني : ليك في كثير حماصنة هون بالادقية
قال له الحمصي : لكن ما تجي لعندا على حمص كلن حماصنة

- حمصي سكران عم يعتذر من رفيقو ، قالو
يستر على إيدك هات أختك لبوسها

- حمصي غبي ماشي مع بنت ، شافت أبوها ،
قالت : يا ويلي شو أعمل
قال لها : بسيطة قوليلو إني أخوكي

- محشش حمصي قال لمحشش تاني: من امبارح وبالي مشغول
قال له التاني : يمكن حدا رافع السماعه
- هاي ، كول مي بليز

حمصي باعت مسج لواحد موبايلو ما بيستقبل عربي

- عجوز حمصية سمعت أنو الدش حرام
قالت الحمد لله! سبعين سنة وأنا بتحمم بالسطل

- حماصنة يتدربون على ربط الكرافة
سبعة ماتو خنق وأربعة بحالة خطرة

- حمصي ماشي بالشارع بالليل لاقى لوحه معلقة على عامود الكهربا مكتوب
عليها بيت للإيجار ومرسوم سهم...فصار يدق عالعامود ويدق ويدق ويفتحلي
مر من جنبه حمصي ثاني أم سأله خير شو في ؟
قلو : كاتبين بيت للإيجار وبدي استأجر بس ما حدا عم يفتحلي
رد الثاني: والله غريب كيف ما حدا عم يرد مع إنه الضو شاعل

- واحد حمصي بياكل بأيديو اليسار أولو الشيطان بياكل معك أم راح حط سم
بالأكل.

- واحد من أهل حمص قرر ان يغزو الشمس بصاروخ ، قالو له بس الشمس
حارقة ، فعمل رحلتو بالليل.

- حمصي كرماي بالقهوة قال للكرسون جبلي واحد قهوة وسط واتين هجوم
- حمصية قالها أبوها إجاكي أخ صغير قالتو : بدمتك ؟..
لا تقول لأمي...خليها مفاجئة !

- حمصي ضرب رفيقو كف .. سألو هادا جد ولا مزح ؟.. قلووا جد
فجاوبو: منيح لأنني ما بتحمل هيك مزح

- مجموعة حماصنة اخترعوا باص بالعرض ليش ؟
مشا يركبو كلهن قدام

- حمصي طلع على الطابق الأول ناوي ينتحر شافو أخوه وقلو شو عم تساوي
عندك جاوبو بدي أنتحر قلو أخو يا ذي يلي بدو ينتحر بيطلع على آخر طابق جاوبو
شو بدك تموتني

- ليش الحماصنة بيطلعو وجسمون مليون حبوب من الحمام؟ لأنو بيستعملو
صابون النحلة

- حمصي دخل لعند السمان قلو عندك بسكوت تبع الخمسة قلو ايه ... قلو
بقديش الوحدة

- حمصي قالولو الجزر بقوي النظر جاب كليين وقعد يطلع فيهن

- حمصي عملولو امتحان لحالو قام طلع الثاني

- واحد حمصي معصب قالولو طول بالك.....

قلن : كام متر يعني؟؟؟؟

- حمصي شاف لافتة مكتوب عليها مزرعة أبقار

سأل راعي المزرعة كيف تزرعون البقر ؟؟

قاله الراعي باستعباط : نرش سكر ويطلع بقر

راح ألحمصي ثاني يوم ورش سكر

رجع ثاني يوم شاف النمل متجمعين

قال : محلاهم البقر وهم صغار !!

- حمصي داخل سينما لقي مكتوب ممنوع الدخول لأقل من ١٨

قام جاب ١٧ من أصحابه ميشان يحضروا معو الفيلم

- حمصي قرصته حيه قعد يضحك ليش ؟؟؟؟

طلع معو إيدز

- دكتور عيون حمصي شاف إشارة حمرة

نزل من السيارة وحط لها قطرة .

- اتنين حماصنة تبنوا ولد صيني صاروا يتعلمو اللغة الصينية ميشان لما بيكبر

يفهموا عليه

- قال في حمصي اشترى سيارة مرسيديس وبدو يجربها على طريق دمشق حمص

فلما رجع من التجربة سألوا أصدقائه كيف السيارة؟

قلهن بالروحة كانت سريعة أخذ معي الطريق ساعة بس اما بالرجعة اخدت سبع ساعات سألوه ليش؟ قالهن الامان ما حطو فيها الا غيار واحد للرجعة لورا

- قال في أربعة حماصنة عم يلعبو على الخط السريع وكان أهم شرط باللعبة أنو يلي بيندعس مرتين يطلع برا .

- ليش الحمصي بحط على رأسه خوذة

لأنه يريد أن يبني مستقبله

- ليش كل ما بيشوف الحمصي البرق بيضحك ؟

بيفكر في حدا عم يصورو

- حمصي اشترى جوال عطاء لاخوه وقلو اكتبلي رسالة لانو خطي مو حلو

واحد حمصي ماسك قطعة ثلج شافو حمصي تاني وقلو وين صافن

قلو انشالله موت بس اعرف من وين قطعة الثلج مبخوشة

- في واحد حمصي دق ع الاستعلامات سأل الموظفة :اديش رقم الاطفاء قالتوا

ثلاث تسعات ٩٩٩ قال الحمصي انا عندي تسعة وحدة فقط، قالت الموظفة انت

حمصي شي قال انتي مركبة كاشف ومالي خبر

- في واحد سأل حمصي قلو اذا عرفت شو داخل الكيس راح اعطيك سمكة

قال الحمصي سهلة بحر !!

- حمصي واقف امام الثلاجة وشايل بايدو سكين ليش؟

بدو يعرف مين عم يشغل اللمبة

- واحد حمصي رجع من السفرشاف في بيتو صراصير راح غير القفل!!!

- اثنين حماصنة ركبو عالبيسكليت صارو يتقاتلو مين راح يقعد جنب الشباك

- مجموعة علماء حماصنة قرروا يعملوا أبحاث على ضفدع آم قطعوا له أول رجل وقالو نط آم نط آم قطعوا تاني رجل وقالو نط آم نط آم قطعوا ايدو وقالوا له نط آم نط قطعوا له الإيد التاني وقالوا له نط آم ما نط فكتبوا ملاحظة: إذا قطعت الرجل الرابعة للضفدع فإنه سيفقد حاسة السمع.

- حمصي وحموي و شامي تراهنوا مين يجيب الكنز من مغارة بيحرسها حمار.

راح الحموي و قال للحمار: يا عيني يا روحي ... فرفسو الحمار.

راح الشامي و نفس الشي رفسو الحمار. راح الحمصي و بعد نصف ساعة رجع و معو الكنز. سألو الحموي: كيف جبتو؟ ألو الحمصي: كلمة مني كلمة من الحمار طلعتنا أرايين.

- حمصي سافر لحلب شاف واحد حلبي محمل خيار على الحمار و عم وعم

يصرخ تعو ودعووووووا بعد دقيقتين قدر يبيع كل الخيار قام الحمصي سافر لحمص و عمل نفس الشي بس لما صار يصرخ تعوا ودعووووووا اجوا الحماصنة وصاروا يبوسو الحمار.

- اميركي والماني وحمصي حكم عليهم بالإعدام...

سالوا الأمريكي : بماذا تريد ان نعدملك بالمقصلة الكهربائية ام بالسيف ؟ فقال بالمقصلة . فلم تشتغل المقصلة فافرجوا عنه . سالوا الألماني :بماذا تريد : ان نعدملك بالمقصلة الكهربائية ام بالسيف ؟ فقال : بالمقصلة ... فلم تشتغل المقصلة فافرجوا عنه . سألو الحمصي :بماذا تريد ان نعدملك بالمقصلة الكهربائية ام بالسيف ؟ فقال بالسيف . فصرخ عليه الناس : اطلب المقصلة الكهربائية .. فقال : يا هيلان المقصلة مانا شغالة مانا شغالة !!

- سألو حمصي ليش نشره الاخبار اليوم طويله قالن : يمكن اليوم اخر حلقة.

- كان البرازيل يلعب مع الكرامة وفي الشوط الثاني أخذ البرازيل ضربة حرة ورونالدو بدو يشوط الطابة قام الكرامة شكلو حائط دفاع بس بالمقلوب قال الحارس : ليش دايرين وشكون لعندي ديرو لعند رونالدو قالولو : شو بدك تشوف الكوول لحالك

- حمصي سألوه مين برأيك أهم الشمس ولا القمر ، قال القمر طبعاً ، قالوله ليش ، قال لأنه القمر بيطلع بالليل ويبيطينا ضو أما الشمس بتطلع بالنهار والدينا ضاوية أصلاً.

- (على هامش الحرب الأميركية على طالبان) قصة واقعية قام بها طلاب إحدى المدارس الثانوية في مدينة حمص ، حيث أرسلوا إلى مدير مدرستهم مظروف ، وعندما فتحه وجد داخله مسحوق أبيض اللون ، ورسالة جاء فيها : " مع تحيات بن

لادن" فأصيب المدير بالذعر، خوفاً من الجمرة الخبيثة التي سمع الكثير عنها في وسائل الإعلام، لكن المسحوق لم يكن إلا بودرة أطفال.

. الحماسنة عملوا مظاهرة للاحتجاج على سياسية الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش لبسو واحد منهم قناع بوش وأحرقوه

حمص

٢٠٠٠/١/١

٢٠٠٤/١/٢٩

تم إجراء بعض التعديلات

دمشق ٢٠٠٨/١٠/١٧

أرجو مراسلتي لإبداء الملاحظات على الكتاب على الإيميل:

newsgolo@yahoo.com

أو زوروا موقعي www.georgekadr.com

الكوميديا تتغذى على الأمانا

الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن (٢٠٠١-٢٠٠٨) كان من أكثر الرؤساء الذين مروا على التاريخ البشري إثارة للحروب والنزاعات في العالم... توجت فترة حكمه بانهييار برج التجارة العالمي (أحداث سبتمبر أيلول) الحدث الذي كان له أكبر الأثر على المشهد العالمي بكل أبعاده وختم فترة حكمه بأكبر أزمة مالية عالمية كان لها تداعيات عميقة في بنية النظام الاقتصادي والسياسي العالمي.

في عهده ارتفعت وتيرة العنف بكل أشكاله سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعسكريا، وحسب ما تذكر موسوعة ويكيديا على شبكة الانترنت فإن فترة حكمه كانت من أعنف الفترات التي مرت على البشر، في حربه على العراق التي زادت تكلفتها عن ٣ تريليون دولار قتل أكثر من مليون شخص في العراق وشرذ الملايين إلى دول الجوار وقتل أكثر من ٥٠٠٠ جندي امريكي في العراق.

ورغم الشخصية التدميرية لهذا الرجل إلا أنه كان مادة خصبة لوسائل الإعلام فحقق شعبية وجماهيرية لكونه أكثر شخصية غبية عرفها تاريخ الحكم في أميركا على الأقل كما أظهرته وسائل إعلامهم، ضحك الأمريكيون على غبائه وزلات لسانه حتى أن الصور الأكثر انتشارا له كانت تلك التي تظهر أوجه الشبه بينه وبين القروذ عدا عن طباعة صورته على أوراق الحمامات كي يفرغ الأمريكي غضبه من ممارسات هذا الرئيس كل صباح، كان الأمريكيون باختصار يضحكون على ألمهم ومعاناتهم عندما يضحكون عليه... أليست الكوميديا والفكاهة تتغذى وتعتاش وتتمو على الأمانا ومعاناتنا.

لنقرأ هذا الخبر الذي نشرته وكالة رويترز بتاريخ الأربعاء ١٢ نوفمبر ٢٠٠٨م:

كوميديو أميركا يتخوفون من "أزمة تنكيت" مع قرب انتهاء ولاية بوش

توقع خبراء أن يعاني الفنانون الكوميديون في الولايات المتحدة من "أزمة تنكيت" مع رحيل الرئيس جورج بوش عن البيت الأبيض، بعدما شكّل مصدر إحياء كبير لهم، بينما لا يبشر الرئيس المنتخب "بالخير".

فبعدها "انتعش" سوق الكوميديا بنكات بوش، يبدو أن باراك أوباما لن يكون مناسباً للنكات، خاصة مع الدعم الكبير الذي ناله من نجوم هوليوود، ليكون أول رئيس أسود للولايات المتحدة، وسط أزمة مالية عالمية، وحربين في العراق وأفغانستان.

وسواء أكان السبب هو أنه مفضل لدى فناني الكوميديا الذين يميلون الى اليسار، او الطبيعة التاريخية لانتخابه او أنه لم يرتكب الكثير من الزلات، حتى الآن فإن الكوميديين لا يجدون الكثير ليطلقوا المزحات بشأنه حتى الآن.

وقال مايكل ماستو الكاتب بجريدة "فيليدج فويس" التي تصدر في نيويورك "انتخاب أوباما رائع بالنسبة لبلادنا لكنه سيء بالنسبة للكوميديا... انه شخص نزيه وذكي يحاول إنقاذ دولة في أزمة وهذا لا يثير الضحك".

وأضاف "الكوميديا تزدهر حين تكون هناك أهداف مضحكة... تقليديا قدمت برامج مثل "ساترداي نايت لايف" أفضل ما لديها حين تناولت شخصيات مثل الرئيس (جيرالد) فورد الذي لم يكن يستطيع الوقوف بشكل مستقيم طوال الوقت، أو بوش الذي لم يستطع نطق كلمة نووي، او سارة بالين التي لم تكن تعلم أن افريقيا قارة".

وارتفعت معدلات المشاهدة لبرنامج "ساترداي نايت لايف" الذي يبث منذ فترة طويلة على شبكة ان بي سي بشدة اثناء حملة الانتخابات الرئاسية للعام الحالي ٢٠٠٨، وأذكاها تقليد النجمة تينا فاي لمرشحة الحزب الجمهوري لمنصب نائب الرئيس سارة بالين حاكمة ألاسكا.

وكانت البرامج الاخبارية الساخرة، كما مقدمي البرامج الحوارية التي تذاع في وقت متأخر، يحصلون على ذخيرة للكوميديا بانتظام خلال السنوات الثماني التي قضاهما بوش في الحكم.

واعتبر أستاذ التلفزيون والثقافة الشعبية بجامعة سيراكيوز روبرت طومسون "باراك أوباما حتى الآن كابوس لفناني الكوميديا".

حتى أوباما مزح في حفل عشاء بنيويورك حين سخر هو ومنافسه الجمهوري جون مكين من نفسيهما بأن اكبر نقطة ضعف في كل منهما، كانت "أنا مروع بدرجة اكثر من اللازم بقليل".

فقرة ثابتة

الرئيس أسود لهذا فان من الواضح أننا سنسخر من كل موقف يخطر على بال بشأن رئيس أسود

وأذاع برنامج "ذا ليت شو ويذ ديفيد ليترمان" على شبكة سي بي اس فقرة ثابتة بعنوان "لحظات عظيمة في الخطب الرئاسية" تسخر من بوش حين يتحدث علنا كما عبر لينو الذي يقدم برنامج "ذا تونايت شو" على ان بي سي عن حزنه لفوز اوباما.

وقال لجمهوره في اليوم التالي لانتخابات الرابع من نوفمبر/تشرين الثاني "لا بد أن أعترف كفنان كوميدي أنني سأفتقد الرئيس بوش، لأن إطلاق النكات على أوباما ليس بالامر اليسير فهو لا يعطيك ما يكفي لتستخدمه". وأضاف "لهذا وهبنا الله (نائب الرئيس المنتخب) جو بايدن".

بوش نفسه شكك من صعوبة السخرية من اوباما، قبل أن يعلن السيناتور نفسه مرشحا للرئاسة بكثير. فقال بوش في حفل عشاء في واشنطن عام ٢٠٠٦ "سيناتور اوباما... أردت أن أطلق مزحة عنك لكن هذا مثل اطلاق مزحة عن البابا... امنحني مادة لاستخدمها. لتخطيء في نطق كلمة ما".

لكن استاذ الإنتاج الإعلامي بجامعة كوينيبياك ليام اوبراين اعتبر أن فناني الكوميديا لم يخسروا كل شيء "لأن الكوميديين المتقدمين سيواصلون استخدام

ما خلفه الحزب الجمهوري" ومن شأن اوباما أن يمنحهم مادة ليعملوا بها في مرحلة من المراحل.

وأضاف "كما قال اوباما" لم أولد في مذود". انه واع تماما خاصة للمسائل الصعبة ومهما بلغت جودة المشورة التي يقدمها فريق العاملين معه فإن أخطاء سترتكب".

تحديد العرق

لكن، فيما يحاول فنانو الكوميديا البحث عن سبل للسخرية من اوباما يستبعد أن يكون عرقه أول منطقة يبحثون فيها عن مادة على الاقل بالنسبة للكوميديين من البيض. ويقول تريسي مورغان، وهو فنان كوميدي اسود وممثل في برنامج الكوميدي انه بالنسبة لفناني الكوميديا السود فإنهم يستطيعون السخرية من اوباما بلا حدود.

وقال لنيويورك تايمز "الرئيس أسود لهذا فان من الواضح أننا سنسخر من كل موقف يخطر على بال بشأن رئيس أسود". وأضاف "على فناني الكوميديا البيض أن يجازفوا. اذا كانوا سيقدمون على هذا فالأفضل أن يكونوا مضحكين".

مراجع البحث

- ١) علي مروه، من موسوعة الأدب الضاحك، الجزء الأول، طرائف الشعراء والأدباء، رياض الريس للكتب والنشر.
- ٢) علي مروه، موسوعة الأدب الضاحك، الجزء الثاني، طرائف المصريين، رياض الريس للكتب والنشر.
- ٣) علي مروه، موسوعة الأدب الضاحك، الجزء السادس، طرائف الأذكياء والمغفلين، رياض الريس للكتب والنشر.
- ٤) مروج الذهب ومعادن الجواهر، المجلدين، الثاني، للمؤرخ أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، تحقيق الشيخ قاسم الرفاعي، دار القلم بيروت.
- ٥) أدبنا الضاحك، عبد الغني العطري، دار البشائر، الطبعة الثانية ١٩٩٢
- ٦) مروج الذهب ومعادن الجواهر، المجلدين، الثالث، للمؤرخ أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، تحقيق الشيخ قاسم الرفاعي، دار القلم بيروت.
- ٧) د. جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام، ص٦، دار الحداثة بيروت ١٩٨٣
- ٨) تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، المجلدين الأول والثاني، منشورات مؤسسة الأعلی للمطبوعات، بيروت.
- ٩) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر (٤٤٩-٥٧١هـ)، تحقيق: علي شيري، دار الفكر بيروت ١٩٩٥
- ١٠) ابن الجوزي، الأذكياء، تحقيق عادل عبد المنعم أبو العباس، مكتبة القرآن، القاهرة.
- ١١) أخبار الحمقى والمغفلين، الإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تنقيح محمد أمين فرشوخ، دار الفكر العربي.
- ١٢) د. فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة د. جورج حداد و عبد الكريم رافق، مراجعة د. جبرائيل جبور، الجزء الأول، دار الثقافة بيروت
- ١٣) د. فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة د. كمال اليازجي، مراجعة د. جبرائيل جبور، الجزء الثاني، دار الثقافة بيروت
- ١٤) د. فيليب حتي، صانعو التاريخ العربي، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة بيروت
- ١٥) د. طه حسين، من تاريخ الأدب العربي، الجزء الأول، دار العلم للملايين، بيروت، آذار ١٩٧٠

- ١٦) د. طه حسين، من تاريخ الأدب العربي، الجزء الثاني، دار العلم للملايين، بيروت، آذار ١٩٧٠
- ١٧) د. طه حسين، من تاريخ الأدب العربي، المجلد الثالث، دار العلم للملايين، بيروت، آذار ١٩٧٠
- ١٨) أول ديورات، قصة الحضارة، المجلد ١٣-١٤، عصر الإيمان، اختارته وأنفقت على ترجمته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية.
- ١٩) منير خوري أسعد، تاريخ حمص، الجزء الثاني، نشرته مطرانية حمص الأرثوذكسية ١٩٨٤.
- ٢٠) الشيخ جعفر المهاجر- التأسيس لتاريخ الشيعة (٢) ستة فقهاء أبطال- الطبعة الأولى- ١٩٩٤م- المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى مركز الدراسات والتوثيق والنشر.
- ٢١) الميثولوجيا السورية- أساطير آرام، د. وديع بشور، مؤسسة الفكر للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، تشرين الثاني ١٩٨١
- ٢٢) ساطع محلي، حمص أم الحجارة السود، حمص ١٩٦٣/١/٢٠
- ٢٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، المجلد ٤، الجزء ١٠- ١٢
- ٢٤) محمد علي دقة، السفارة السياسية وأدبها في العصر الجاهلي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٣
- ٢٥) أنطون سابا، حمصه، Anton-Soba p-o-box 5322 chatsworth-CA- 91313 -5322 U-S-A
- ٢٦) دانييل جولمان، الذكاء العاطفي، ترجمة ليلى الجبالي، سلسلة عالم المعرفة ٢٦٢.
- ٢٧) د. عادل العوا، أخلاق التهكم، دار الحصاد الطبعة الأولى ١٩٨٩.
- ٢٨) مدارس التحليل النفسي، ترجمة وجيه أسعد، إصدارات وزارة الثقافة.
- ٢٩) ديزموند موريس، الطفل الرضيع، ترجمة محمد دنيا، دار الإرشاد بحمص.
- ٣٠) ديزموند موريس، القرد العاري، ترجمة ميشيل أزرق، دار الحوار للنشر والتوزيع.
- ٣١) سيجموند فرويد، ما فوق مبدأ اللذة، ترجمة د. اسحق رمزي، دار المعارف بمصر.
- ٣٢) محمد أبو خضور، النكتة الصهيونية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٧٧.
- ٣٣) بو علي ياسين في كتابه بيان الحد بين الهزل والجد، دار المدى للثقافة والنشر
- ٣٤) علي ديب حسن، النكتة العربية بين الماضي والحاضر، دار المنارة ومؤسسة عبور للطباعة، بيروت ١٩٩٦

- ٣٥) عبد العزيز سيد الأهل، النكتة المصرية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٤٨
- ٣٦) فرانتس ألتهايم، إله الشمس الحمصي، ترجمة. إيرينا داود، مراجعة فراس السواح، دار المنارة
- ٣٧) فراس سواح، دين الإنسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، منشورات دار علاء الدين، الطبعة الأولى ١٩٩٤.
- ٣٨) إمبراطورات سوريات- تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطورية الرومانية-، جان بابليون، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٩٨٧.
- ٣٩) الأبشيهي (٧٩٠-٨٥٠ هـ)، شهاب الدين بن محمد الأبشيهي، المستطرف من كل فن مستظرف، دار القلم، بيروت ١٩٨١، ونفس المرجع، إصدار دار إحياء التراث العربي
- ٤٠) تونئي مكحخوني، نوادر مضحكة للعلامة مار غريغوريوس يوحنا ابن العبري مفریان المشرق ١٢٢٢. ترجمة الأب يعقوب كامل طحان.
- ٤١) نعيم الزهراوي ومحمود السباعي، حمص دراسة وثائقية في الحقبة من ١٨٤٠-١٩١٨م، الجزء الأول، حقوق الطبع والنشر والصور والوثائق محفوظة للمؤلفين.
- ٤٢) نعيم الزهراوي، الجزء السابع، جذور ريف حمص دراسة وثائقية، دار السلامة للنشر.
- ٤٣) د. شاكر مطلق ندوة حمص الأثرية والتاريخية الأولى
- ٤٤) د. عبد الكريم اليافي، دراسات فنية في الأدب العربي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت ١٩٩٦
- ٤٥) جان إيف جيلون، أعياد الربيع القديمة في حمص، ترجمة زياد خاشوق، حمص ١٩٧٧، موافقة وزارة الإعلام ٣٩٣٥٧/٣/١٩٩٧
- ٤٦) مرسيا إلياده، المقدس والديني، ترجمة نهاد خياطة، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧
- ٤٧) نجاة قصاب حسن، حديث دمشق ١٨٨٤-١٩٨٣، مذكرات "١"، الطبعة الثالثة ١٩٩٢، الحقوق محفوظة للمؤلف
- ٤٨) تيمورلنك وحكايته مع دمشق، أكرم حسن العليبي، دار المأمون للتراث، الطبعة الرابعة ١٩٨٧
- ٤٩) أخبار الدول في آثار الأول، لأحمد بن يوسف القرماني (توفي ١٠١٩ هـ، ١٦١٠ م)، المجلد الثالث، دراسة وتحقيق أحمد حطييط، فهمي سعد، عالم الكتب، بيروت.

- ٥٠) المقدسي، محمد بن أحمد (٣٩٠هـ-٣٣٥هـ) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٠، تحقيق :: غازي طليمات،
- ٥١) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود القزويني {١٢٠٣-١٢٨٣} آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت، بيروت ١٩٦٠
- ٥٢) ابن بطوطة، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي، حققه ووضع خرائطه عبد الهادي التازي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث.
- ٥٣) رحالة ابن جبير، دار صادر- دار بيروت
- ٥٤) ياقوت الحموي، الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي الرومي المتوفى سنة ٦٢٦هـ، معجم البلدان الجزء الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت
- ٥٥) أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بصاحب حماة، تقويم البلدان، طبع في مدينة باريس المحروسة بدار الطباعة السلطانية سنة ١٨٥٠
- ٥٦) ابن جوقل، أبي القاسم بن جوقل النصيبي (ت٣٦٧هـ)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩.
- ٥٧) ابن الفقيه الهمداني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني كتاب البلدان، تحقيق يوسف الهادي، بيروت عالم الكتاب للطباعة والنشر، بيروت ١٩٩٦
- ٥٨) الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٩، المجلد الأول.
- ٥٩) أبو الفضل النيسابوري الميداني، مجمع الأمثال، المجلد الأول، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
- ٦٠) كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، حققه أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ١٩٦٤
- ٦١) أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (٩٩٢-١٠٤١هـ)، نضح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، الجزء الأول، شرحه وضبطه وعلق عليه د. مريم قاسم طويل، د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥
- ٦٢) فضائل الأندلس وأهلها، لابن حزم، وابن سعد، والشقندي، نشرها وقدم لها د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ١٩٦٨

٦٣) تاريخ مختصر الدول، للعلامة غريغوريوس الملطي، المعروف بابن العبري، المتوفى سنة ٦٨٥هـ، دار المسيرة بيروت

٦٤) ديوان تذكرة الغافل في استحضار المآكل، جمعه: محمد الخالد الحلبي الحمصي، دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت، طبعة دار القلم الأولى ١٩٩٤

٦٥) ديوان ديك الجن الحمصي، جمع وتحقيق مظهر الحجى، وزارة الثقافة إحياء التراث ٧٣

٦٦) السنكسار: سير القديسين الذين تكرمهم كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك على مدار السنة- وضعه المطران ميخائيل عساف رئيس أساقفة بترافيلادفيا وسائر شرق الأردن- طبعة ثانية- المطبعة البوليسية حريصا (لبنان) الطبعة الأولى كانت عام ١٩٤٨.

٦٧) جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، أحمد وصفي زكريا، دار الفكر تموز ١٩٣٤

٦٨) الفكاهة البلغارية داميان بارنبا كوف ترجمة حسين راجي، منشورات دار الثقافة بدمشق ١٩٨٢

٦٩) العربي- العدد ٤٥٦- تشرين الثاني ١٩٩٦ حمص... رحابة المكان، مرافئ الزمان، استطلاع د. محمد المخزنجي

٧٠) العربي، العدد الثاني والخمسون، مارس، ١٩٦٣، حمص...، استطلاع سليم الزبال

٧١) العربي، العدد الثاني والخمسون، مارس، ١٩٦٣، بيوت القيان، د. نبيه عاقل

٧٢) مجلة العربي العدد ٤٨٤، مارس، ١٩٩٩، استطلاع عن مدينة حماة

٧٣) الدومري- العدد ٣٩- الاثنين ٢٦/١١/٢٠٠١

٧٤) جريدة الحياة، الأربعاء ٢٧- ١٠- ١٩٩٩

٧٥) لقاء مع المفكر محمد أركون في جريدة السفير، ١٢/ نيسان/ ٢٠٠٢

٧٦) ملحق السفير الثقافي، الجمعة ١٥ آذار ٢٠٠٢

٧٧) مجلة المعرفة السورية العدد ٤٨٤ كانون الثاني ٢٠٠٣ إخوان الصفا: قراءة معاصرة، كمال راغب الجابي.

٧٨) علي القيم، صحيفة البعث ١٠-٦-٢٠٠٤

٧٩) حزب البعث وصحفيو حمص، نشرة كلنا شركاء في الوطن عدد ١٤ تموز ٢٠٠٦

٨٠) النكتة الحمصية من جوليا دومنا إلى يومنا، تقرير في وكالة سانا / /

٨١) نهاد سمعان، حمص ويوم الأربعاء، محاضرة ٢/٦/٢٠٠٢

٨٢) صحيفة تشرين، مقابلة مع رئيس الوزراء محمد ناجي العطري ٩/ ٢٠٠٥.

٨٣) موسوعة ويكيبيديا الاللكترونية قسم رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية . جورج بوش
٨٤) كوميديو أمريكا يتخوفون من أزمة تنكيت مع قرب ولاية بوش، رويترز للأخبار الأربعاء
١٢ نوفمبر ٢٠٠٨م

في حال وجود أي ردود أو اقتراحات يرجى مراسلتنا على العنوان التالي:

NEWSGOLO.YAHOO.COM
WWW.GEORGEKADR.COM

الفهرس

٥	الإهداء
٧	مقدمة
١١	العصبية العربية بين حرب السيف وحرب الهجاء
١٣	العصبية والهجاء
١٥	وقعة صفين، والنقمة على أهل حمص
١٧	المتدينون ببغض علي " الناصبيون "
٢٠	العرب والعصبية في بلاد الشام
٢٢	الحجاز - دمشق - العراق والانتقال إلى اللهو
٢٧	حرب الأديولوجية الفكاهية
٢٧	حمص والتعصب الطائفية/القبلية
٢٧	الرواية الشعبية:
٢٩	نعوت وألقاب:
٣١	نعوت وألقاب من العالم
٣٢	تيمورلنك، سيد الدمار
٣٤	الصراع السني/الشيوعي
٣٧	صراع القيسية واليمانية
٤٠	أهل حمص في نظر الجغرافيين والمؤرخين
٤٩	الأحمق الحمصي في الأدب العربي
٥١	ابن الجوزي وأهل حمص
٥٦	مصادر أخرى
٥٦	ابن العبري (٦٢٥-٦٨٥هـ)
٥٧	الأبشيهي (٧٩٠-٨٥٠هـ)

٦٢	المعارضات الزينية على المنظومات الهلالية
٦٢	حمص وحماة "الأعداء الحميمون".
٦٤	ليتوروجيا عيد المجانين المندثر.
٦٥	مجاديب أم مجاذيب
٦٦	يوم الأربعاء
٦٩	أعياد الربيع القديمة في حمص.
٧١	خميس الضايح
٧١	خميس الشعنونة
٧٢	خميس المجنونة
٧٣	مكانة حمص الدينية.
٧٦	إله الشمس الحمصي.
٧٧	طقوس العبادة.
٨٠	سمعان المتبالة لأجل المسيح.
٨١	فلسفة سماعيل.
٨٣	حمص "كعبة" اللهو.
٨٦	مدخل إلى عالم الضحك
٨٨	في منشأ الضحك
٩٤	حول النكتة
٩٦	من هو الرامي أو مبدع النكتة أو صانع النكتة :
٩٧	المزاج الجمعي
٩٨	تعريف خاص للنكتة
١٠٠	وجهات نظر حول النكتة الحمصية
١٠٥	وجهة نظر
١٣٧	مراجع البحث